﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ستجري والله دموعك أسفاً وحزناً ويشخص لملك الموت البصير الذي بصر نورنا وتبقى على الصراط بأعمالك مرتهناً وتبدو قبائح أفعالك من السر إلى الجهر وتذرف منك والله العيون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هيهات بعد فوات الأعمار لا تنفع الحسرة وعند انقطاع الآمال لا تفيد الفكرة ليت شعري ما جوابكم يوم الحيرة إذا نودي : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥] ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إلـهي من لعبيدك أخجلتهم المعاصي والذنوب من لآبق أبعده عن الباب قبيح الزلات والعيوب عفوك يا علام الغيوب فقد حسنا برحمتك الظنون . إلـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشد مصيبتي أنبه غيري وأنا النائم سيدي ما أبلغ قصتي أدل غيري وأنا الحائر . إلـهي جد بالعفو عن مذكر متكلف وسامع متخلف . إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أتراك تقبل المدلول وتردّ الدليل . إلـهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

المجلس الحادي والعشرون

في قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١- ٢]

الحمد لله الذي برهن باهر قدرته على إثبات ثبات وحدانيته ببرهان وجود الموجودات الباطنة والظاهرة ، جعل دلائل الحكم وبراهين القدم وآيات الإبداع وشواهد الاختراع نطقاً لقارىء الأفكار على سطور الكائنات الواردة والصادرة كتب رسول القضاء بقلم القدر في دروج الموجودات لا تقرأ كتابة أسرارها إلا بألسنة الأرواح الصافية الطاهرة . بعث كواكب الفهم لعيون العقول فشاهدت عجائب الجبر وغرائب القهر في إثبات الكسب في ديوان ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] سكر العقل من خمرة العجز وظهر له خيالات الصور من وراء ستر العيب على بساط الحركات والسكنات مقهورة في باطنها وفي ظاهرها قاهرة ، أطلق لمريد العقل طرف الطرف على أرض الفكر ليصل إلى مدينة الإدراك فانقضّ عليه فارس القدر فأوقفه على حدّ العقول حد يقف عنده فعلم أن

قواه عن الإدراك قاصرة ، رفع العقل بصر الأبصار فشاهد مراتب الأملاك في مناصب الأفلاك فساجد بالهيبة وراكع بالعظمة وقائم بالقدرة وذاهل بالمحبة وشاخص لامتثال الأمر في البسائط والمركبات والأدوار الدائرة ، وخفض مرآة الاعتبار فقابلت صور الكائنات عن العدم بإرادة الندم فظهر له سرائر الصنعة في إقامة برهان الأشكال من مشكلات الطبائع المتعاندة المتنافرة شاهدنا الحرارة وماء البرودة مجموعة في خزائن الحيوان ، فلا الحرارة تقي البرودة ولا البرودة تقي الحرارة قدرة قادر قدرته في المقدورات باهرة ، حير الألباب في قسمة أجزاء الغذاء الواحد تنفصل منه الحرارة للحارّ والبرودة للبارد بأوزان من المقادير فالماء واحد والغذاء واحد وسرّ القسمة مختلف بحكمة لا تشاهدها البصائر الباصرة ، نادى حكيم حكمته أسماع العقول : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] من الأرزاق والآجال والشقاوة والسعادة والقرب والبعد فيا ليت شعري بم سيق الكتاب ؟ وكيف الخلاص من هذه الدائرة ، قدرة قادر لا تتعلق يد النقائض بذيل حكمته ولا تتشبث أنامل الإبادة في تغيير صمديته ولا يطمع طامع الغير في تبديل كلمته ولا تعلل العقول أسرار مشيئته ، فإن عللت بقيت في ليل الجهل حائرة ، قدم بين يدي تقديره زمام أم الكتاب ، وأمر كاتب القضاء بقلم القدر بكتابة أسرار المقرّبين والمبعدين فقرب بلا علة وأبعد بلا سبب وختمه بخاتم السابقة فهي غائبة حاضرة ، محا وكتب ونسخ وأثبت وأبعد وقرب وهدى وأضلّ وأعزّ وأذلّ وأمر أفهام العقول بفهم الرموز ، وكيف تدرك العقول القاصرة . فباللّه يا أخي كيف الحيلة وما السبب ؟ وبم سبق الأقدار ، ومن الرابح في أعماله ومن أعماله خاسرة ؟ فسبحان من غمض بصائر الباصرين ، عن مشاهدة أسراره بستر التركيب ، وحجب الطبائع في سرادقات التكاليف فافتقرت إلى مرشد الرسالة على توالي الدهور الداهرة . أحمده وأؤمن به وأتوكل عليه وأبرأ من الحول والقوة إليه ، براءة عبد معترف بما كسبت يداه من الزلات مفتقر إلى رحمته العامرة ، أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له المنزه عن الكمّ والكيف والأين والزمان والمكان والكل والجزء والفوق والتحت واليمين والشمال والوراء والأمام . فهذه صفات الأجسام الفانية الغائرة . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الأوّلين والآخرين والمرسلين وسلطان الصديقين وإمام المقرّبين ، وقائد الغرّ المحجلين إلى جنات النعيم ، التي قال في حقها ذو القدرة الباهرة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ ﴾ [القيامة ٢٢ – ٢٣] صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأنصاره صلاة تؤمن روعنا يوم ترى القلوب من الأهوال خائفة طائرة . أيها الناس : أين الذين جمعوا الأموال ولم يغنهم ما جمعوا ، أما كلهم في القبور جمعوا ، أين الذي قطعوا أيامهم

في الشهوات وما شبعوا ، أتراهم أعجبهم المقام أم حبسوا فما رجعوا ؟ أين الذين غرّتهم الدنيا خذلوا والله بالشهوات وخدعوا ، أين الذين نصبت لهم الأسباب شباك الغفلة حتى وقعوا ؟ نزل بهم مفرّق الأحباب فذلوا لسطوته وخضعوا ، أزعجهم من بين الأهل والأحباب وقد فجعوا ، يبكيه أهله وأحبابه يا ليتهم نجحوا ، أفردوه بأعماله ونسوه وانقطعوا ، يناديهم بلسان الحسرات يا ليتهم سمعوا ، ارحموا من صار رهيناً في التراب بلا عمل ينجيه ولا مفزع يؤويه هيهات شربوا كأس الأسف والندامة وتجرعوا ، مزقت الديدان أوصالهم فتقطعوا يودّون لو ردوا أفصاموا بالنهار وبالليل ما هجعوا ، هيهات والله قد حصوا من أعمالهم ما زرعوا ، فبادروا رحمكم الله فبين أيديكم الصراط والحساب ، وأهوال من سكرات الموت صعاب . ويوم تنقطع في الأرحام والأنساب ، ولا ينفع فيه الأهل والأموال والأسباب ، إما نعيم في الجنان أو تقلب في العذاب ، وكل ينادي بلسان الحسرات يا ويلتنا ما لهذا الكتاب . فيا من قادتهم الشهوات إلى الحفائر ، يا من دنس الحرام منهم البواطن والظواهر ، ويا من أعماهم الهوى فعميت منهم البصائر ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ – ٢] . قوله تبارك وتعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ أي شغلكم ، يقال لها بمعنى لعب ولهى عن الشيء غفل ، والتكاثر هو تكلف الكثرة ، والتكاثر أيضاً التفاخر بالكثرة في المال والأولاد والأنساب حتى أدرككم الموت . وهذا خطاب ظاهر في الدنيا إذا كان معنى زرتم مستقبلاً ، أي حتى تزوروا المقابر ، وباطن هذا الخطاب هو قوله تعالى لجامعي الأموال وأهل التفاخر : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١ – ٢] أي ليس الأمر الذي يكون التكاثر عليه ، ويحتمل أن يكون توكيداً ينوب عن اليمين ، ويحتمل أن يكون ردعاً وزجراً عن التكاثر والافتخار ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٣] أي ستعلمون بعد هذا ما يحاسب عليه أهل التكاثر في عرصات القيامة ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٤] ذكر المفسرون من طريق العربية أنه تكرار وتأكيد للوعيد وتغليظ للنهي عنه ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : ٥] أيها الناس ما لكم عند الله وعليكم إذا بدت سكرات الموت ونشر ديوان العمل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴿ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٥] وهو ثلوج الصدور بما يرتفع به الشك وجواب لو محذوف تقديره لشغلكم ذلك عن غيره ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر : ٦] في دار القبر لأنه يعرض على كل آدمي مقعده في النار فإن كان سعيداً عرض عليه وبشر بنواله ، وإن كان شقياً عرض عليه وقرّر له ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ٧ – ٨] قيل عن الصحة والفراغ ، وقال مجاهد وقتادة : كل ما التذّ به فهو نعيم . يا من سبقه القوم

وتخلف في الشهوات ، يا من قطع زمانه في التسويف والبطالات ، يا من قسا قلبه بالمعاصي وجمدت عيناه عن العبرات ، يا من شابت ذوائبه ، وهو مقيم على الزلات ، كم تبارزون بالمعاصي من يعلم خفيات السرائر ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من اكتسب مالاً من حرام فتصدق به أو وصل به رحماً أو أنفقه في الله تعالى جمع ذلك كله وقذف به في جهنم » ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يكتسب العبد مالاً من حرام فيتصدق به فيؤجر عليه ولا ينفق منه فيبارك له فيه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار » ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أيها الناس إن أحدكم لن يموت حتى يستكمل رزقه فلا تستبطئوا الرزق واتقوا الله وأجملوا في الطلب فخذوا ما أحلّ الله تعالى وذروا ما حرّم الله تعالى » واعجباً كلما بسط المولى بساط النعم قابلته بالعصيان ، كم نراك يا عبدي تترك مجالستي وتجالس الشيطان ، كم أنعطف عليك بالآلاء وأنا المنان ، يا عبدي أحب أن أوصلك وتحب البعاد عني والهجران ، ما حيلتك إذا حلّ عليك غضبي وفرّ منك الأهل والعشائر ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ . قال منصور بن عمار رحمة الله تعالى عليه : حجبت سنة من السنين فنزلت سكة من سكك الكوفة فخرجت في ليلة مظلمة مدلهمة وإذا بصارخ يصرخ في جوف الليل وهو يقول : إلـهي وعزّتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولقد عصيتك إذ عصيتك وما أنا بمكانك جاهل ولكن خطيئتي عرضت لي وسوّلت لي نفسي وأعانني عليها شقائي فغرني سترك المرخى عليّ فعصيتك بجهلي وخالفتك لشقوتي ، فمن عذابك من يستنقذني ، وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني ؟ واحسرتا إذا قيل للمُخِفّين : جوزوا ، وللمثقلين : حطوا . أتراني مع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ ويلي كلما كبر سني كثرت ذنوبي ، ويلي كم أتوب وكم أعود ، أما آن لي أن أستحي من علام الغيوب :

ما اعتذاري وأمر ربي عصيت ... حين تبدي صحائفي ما أتيت
ما اعتذاري إذا وقفت ذليلاً ... قد نهاني وما رآني انتهيت
يا غنياً عن العباد جميعاً ... وعليماً بكل ما قد سعيت
ليس لي حجة ولا لي عذر ... فاعف عن زلتي وما قد جنيت

ثم قال :

يا ربّ أنت أمرتني ونهيتني ... وأريتني طرق الضلالة والهدى
وعلمت أني لا أفرّ من الذي ... قدرت لي إن كان خيراً أو ردى

وسلكت بي ما شئت للشيء الذي ... في الخلق ما أخفيته عنهم سدى
ودخلت من غير اختياري تحته ... والعبد محكوم عليه وإن غدا
فاقبل بفضلك توبتي لك مخلصاً ... وارحم فإني قد بسطت لك اليدا
واصفح عن العبد الذي يا سيدي ... قد جاء معترفاً وعاش موحدا

[قال منصور] : فبكيت لما سمعت كلامه وقرأت قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] قال : فسمعت دكدكة عظيمة واضطراباً كثيراً ثم انقطع الحس ، فلما أصبحت مررت على الباب فرأيت جنازة رجل وامرأة تدخل وتخرج وهي تقول : يا بني يا قتيل القرآن ، يا بني يا قتيل الأحزان ، فدنوت منها وقلت : يا أمة الله من هذا الميت ؟ فقالت : ولدي وقرّة عيني ، كان يعمل الخوص فينفق عليّ ثلثاً ، وثلثاً يأكله وثلثاً يتصدق به ! فمرّ به رجل فقرأ عليه آية من كتاب الله تعالى فمات فما حيلتي ؟ :

قف بنا بنكي ديار أقفرت ... فهي تبكي بعدهم إذا هجرت ... وتناغت عندها غربانها
وهي من قبل النوى قد زجرت ... آه من أكبادنا لو حفظت ... عهد سكان الحمى لانفطرت
لا تسل عن حالهم خلقاً فقد ... خبرت أطلالها ما خبرت ... فكأن الأهل ما سروا بها
وكأن الدرا ما قد حضرت ... لهف قلبي لليال سلفت ... تزعج القلب إذا ما ذكرت
خربت دارهمو من بعدهم ... وبهم كانت قديماً عمرت ... وبرغمي أن أرى أطلالهم
ووحوش البين فيها حشرت ... لو رأيت أعينهم ما نالهم ... لبكت من حزنها واستعبرت

[إخواني] أما آن لذي السفر أن يعدّ له الزاد ؟ أما آن لذي المعاصي أن يتوب قبل المعاد ؟ ويحك ما ينفعك غداً أهل ولا مال ولا أولاد ، فإلى متى هذه الغفلة وإلى متى هذا الرقاد ، تولت أيام شبيبتك وليس لك من أعمالك ناصر ، ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ كان خليل العصيري رحمة الله عليه يقول : كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعداً ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً ، فعلام تعرجون وما عسيتم تنتظرون ، الموت أول وارد عليكم من الله تعالى بخير أو بشر ، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً :

سيروا إلى ربكم فالعمر مندرس ... والموت قد حان والأيام تختلس
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانوا إذا الناس قاموا هيبة جلسوا
ومن سيوفهم في كل معترك ... تخشى ودونهم الحجاب والحرس
أضحوا بمهلكة في وسط بلقعة ... صرعى وماشي الورى من فرقهم بطس

كـأنهم قـط مـا كـانوا ومـا خلقـوا قد مـات ذكرهمـو بـين الـورى ونسـوا
والله لو أبصـرت عينـاك مـا صـنعت يـد الليـالي بهـم والـدود يفتـرس
لمـا انتفعـت بعـيش بعـدهم أبـداً أمـاهمو مـن جـنى الـدنيا فقـد يئسـوا

يا هذا إلى كم تضحك ونوادب الحمام تبكي عليك أسفاً ، غيرك يا محروم على الجادة وأنت من البعاد على شفا ، ستبكي زمان الوصال وما صفا ، أما آن لك أن تصالح مولاك ؟ أما كفى كيف عميت بصيرتك عما أنت إليه صائر ! ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ . ويحك كم تحضر المجلس بجسمك وقلبك عن الحضور غائب ! ويحك تملأ بطنك من الحرام وتطلب من الوهاب المواهب ، ويحك إن خرجت من المجلس وما تبت فأنت من القسمة خائب ! هذا باب التوبة مفتوح والتوّاب ينادي هل من تائب فبادروا قبل أن يغلق الباب وتبلى السرائر ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ إلـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشدّ مصيبتي أنبه غيري وأنا النائم ، سيدي ما أبلغ قصتي أدلّ غيري وأنا الحائر ، إلـهي جد بالعفو على مذكر متكلف وسامع متخلف . إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أتراك تقبل المدلول وترد الدليل ، إلـهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك ، وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

المجلس الثاني والعشرون
في صدقة التطوّع

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : ١٨] وقال تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٢] وقال رسول الله ﷺ : « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري كساه الله تعالى من حلل الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله تعالى من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم » رواه الترمذي رحمه الله . وعن أنس بن

مالك عن النبي ﷺ قال : « إن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما في العمر ويدفع بهما ميتة السوء ويدفع بهما المكروه والمحذور » . وروى سعيد بن مسعود الكندي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من رجل يتصدّق يوماً أو ليلة إلا حفظ أن يموت من لدغة أو هدمة أو موت بغتة » . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة » ، وقال بعض العلماء : يتصدّق العبد بالصدقة ويكون البلاء قد نزل فتطلع الصدقة فيتلاقيان فلا البلاء يغلب الصدقة ولا الصدقة تغلب البلاء فهما يقتتلان بين السماء والأرض إلى أن يشاء الله تعالى . وروي عن رسول الله ﷺ : أنه قال : « يقول الله تعالى : عبدي استطعمتك فلم تطعمني ، واستسقيتك فلم تسقني ، واستكسيتك فلم تكسني ، فيقول العبد : وكيف ذلك يا رب ؟ فيقول : مر بك فلان الجائع وفلان العاري فلم تعد عليه بشيء من فضلك فلأمنعنك اليوم من فضلي كما منعته من فضلك » ، وقال الحسن رحمة الله عليه : لو شاء الله لجعلكم فقراء لا غنيّ فيكم ، ولو شاء لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « صدقة السرّ تطفىء غضب الربّ ، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصلة الرحم تزيد في العمر وتوسع في الرزق » ، وقال سالم بن الجعد رحمة الله عليه : إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء وفضل سرّها على علانيتها سبعون ضعفاً . وقيل : إن الصدقة أربعة حروف : صاد ودال وقاف وهاء . فالصاد منها تصون صاحبها عن مكاره الدنيا والآخرة ، والدال منها تكون دليله على طريق الجنة غداً عند تحير الخلق ، والقاف منها للقربة تقرّب صاحبها إلى الله تعالى ، والهاء منها للهداية يهدي الله تعالى صاحبها للأعمال الصالحة ليستوجب بها رضوانه الأكبر . وعن أبي القاسم المذكور رحمة الله عليه قال : كان من خلق إبراهيم ﷺ أن يتصدق بخير ما يجد وأفضله وأحسنه فقيل له : لو تصدقت بدون هذا لكفى ، فقال : لا يراني الله تعالى أطلب خير ما عنده بشرّ ما عندي . وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اثنتان من الشيطان واثنتان من الله تعالى ثم قرأ هذه الآية : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] يعني ينهاكم عن الصدقة ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] يعني بالمعاصي ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ [البقرة : ٢٦٨] يعني يأمر بالطاعات وبالصدقة لتنالوا منه مغفرته وفضله ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] يعني عليم بثواب من يتصدق . وعن أبي ذرّ الغفاري ﷺ قال : ما على الأرض صدقة تخرج حتى تفك لحي سبعين شيطاناً كلهم ينهاه عنها . وعن عكرمة ﷺ قال : كان في بني إسرائيل رجل ذو مال ، وكان ذا معروف في ماله

فمات وترك امرأة وابناً ، فقالت المرأة : ما أرى لما بقي من ماله وجهاً أفضل مما كان يصنع فتصدقت به إلا مائتي درهم ادّخرتها لولدها ، فلمّا أدرك الغلام قال : يا أماه ! أيّ رجل كان أبي ؟ قالت : من خيار بني إسرائيل ، قال : ما ترك مالاً ؟ قالت : بلى ولكنه كان يفعل المعروف وألحقته سبيله . قال : ما كان لك أن تتصدقي بمالي فما أبقيت منه ؟ قالت : مائتي درهم . قال : هاتيها أبتغي بها فضل الله تعالى فأخذها منها ومضى ، فخرج فمرّ بميت عريان مطروح على وجه الأرض ، فقال : ما وضع المال في أفضل من هذا ، فاشترى له كفناً بمائة وثمانين وكفنه وواراه التراب ومضى بالعشرين فإذا هو برجل على الطريق ، فقال له : أين تريد ؟ فقال : خرجت أبتغي فضل الله تعالى ، فقال له : إن دللتك على شيء تصيب فيه فضل الله تعالى تجعل لي فيه نصف ما تصيب ؟ قال : نعم . قال : فانطلق إلى هذه المدينة فإنك ستجد امرأة معها سنور تبيعه فاشتره منها بعشرين درهماً ، ثم اذبحه واحرقه بالنار ، ثم اجمع رماده واذهب بذلك إلى المدينة الأخرى ، فإن ملكها قد ذهب بصره فأكحله يرجع إليه بصره فذهب ففعل ذلك ، فقال الملك : أوردوه الوادي الذي فيه الكحالون ، ثم خبروه إن أبرأني فله ما شاء وإلا قتلته فإن شاء أن يقدم وإن شاء أن يرجع فنظر إلى الكحالين وهم مقتولون . فقال : إني أكحله فكحله . فقال : كأني أرى شيئاً ، ثم كحله ثانياً ، فقال : رأيت شيئاً ، ثم كحله ثالثاً فرجع إليه بصره ، فقال : ما أبرّك بشيء أجلّ من أن أزوجك ابنتي وتسأل حاجتك فأعطاه كل ما أحب من المال فمكث عنده مدة ، ثم تذكر أمه فاستأذن الملك في الانصراف فقال : نعم واحمل معك أهلك ومالك فمرّ بالرجل الذي على الطريق . فقال له : أتعرفني ؟ فقال : لا ، فقال : أنا الرجل الذي كنت وصفت لك كذا وكذا ، فنزل وقاسمه كل شيء معه . فقال الرجل : قد بقي لي شيء ، فقال : وما هو ؟ قال : امرأتك فأنشدك الله إلا ما وفيتني . قال : وكيف نصنع ؟ قال : تنشرها بمنشار قال : أفعل ، فلما وضع المنشار على رأسها قال : قف فإني رسول الله إليك حفظك الله حيث حفظت عهده ثم رد عليه ماله .

[كان وكان]

من عامل الله يربح وكل من يصدق نجا ومن وفى بالأمانه يكتب من الأخيار
ومن عرف ما يطلب هان الذي يبذل عليه ومن يخاطر ويجسر قد أدرك الأوطار
ومن زرع في الدنيا يحصد غداً في الآخره ويجتلي في الجنه عرائس الأبكار
ومن يسلم أموره لله يعطيه الرضا ويتحفه بالعنايه وكل ما يختار

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : « أن امرأة من بني إسرائيل كان لها زوج وكان غائباً وكان له أمّ فأولعت بامرأة ابنها فكرهتها فكتبت كتاباً على لسان ابنها إلى امرأة ابنها

بفراقها ، وكان لها ابنان من زوجها . فلما انتهى ذلك إليها لحقت بأهلها مع ولديها وكان لهم ملك يكره إطعام المساكين فمر بها مسكين ذات يوم وهي على خبزها فقال : أطعميني من خبزك ، فقالت : أما علمت أن الملك حرم إطعام المساكين ؟ قال : بلى ولكني هالك إن لم تطعميني أنت ، فرحمته وأطعمته قرصين وقالت له : لا تعلم أحداً أني أطعمتك فانصرف بهما فمر بالحراس ففتشوه وإذا بالقرصين معه ، فقال له : من أين لك هذا ؟ فقال : أطعمتني فلانة فانصرفوا به إليها ، فقالوا لها : أنت أطعمتِه هذين القرصين ؟ قالت : نعم ، قالوا لها : أو ما علمت أن الملك حرم إطعام المساكين ؟ قالت : بلى ، قالوا : فما حملك على ذلك ؟ قالت : رحمته ورجوت أن يخفي ذلك فذهبوا بها إلى الملك وقالوا : هذه أطعمت هذا المسكين قرصين ، فقال لها : أنت فعلت ذلك ؟ فقالت : نعم ، فقال لها الملك : أو ما كنت علمت أني حرمت إطعام المساكين ؟ قال : نعم ، قال : فما حملك على هذا ؟ قال : رحمته ورجوت أن يخفي ذلك وخفت الله فيه أن يهلك فأمر بقطع يديها فقطعتا وانصرفت إلى منزلها وحملت ابنيها حتى انتهت إلى نهر يجري ، فقالت لأحد ابنيها ، اسقني من هذا الماء ، فلما هبط الولد ليسقيها غرق . فقالت للآخر : أدرك أخاك يا بنيّ ، فنزل لينقذ أخاه فغرق الآخر فبقيت وحدها فأتاها آت فقال : يا أمة الله ما شأنك ههنا إني أرى حالك منكراً ، فقالت : يا عبد الله دعني فإن ما بي شغلني عنك فقال : أخبريني بحالك ، قال : فقصت عليه القصة وأخبرته بهلاك ولديها . فقال لها : أيما أحب إليك ؟ أأردّ إليك يديك أم أخرج لك ولديك حيين ؟ فقالت : بل تخرج ولديّ حيين فأخرجهما حيين ، ثم رد عليها يديها وقال : إنما أنا رسول الله إليك بعثني رحمة لك فيداك بقرصين وابناك ثواباً لك من الله تعالى برحمتك لذلك المسكين وصبرك على ما أصابك واعلمي أن زوجك لم يطلقك فانصرفي إليه فهو في منزله وقد ماتت أمه فانصرفت إلى منزلها فوجدت الأمر كما قيل لها :

جعلت على لطفك المتكل ... وأعرضت عن فكرتي والحيل ... وما دام لطفك لي لم أخف
عدواً إذا كادني أو خذل ... ولطفك رد الذي أختشي ... كما كشف الضرّ لما نزل
ويا سيدي كم مضيق فرجت ... بلطف تيسره من عجل ... ملاذي ببابك لا حلت عنه
ويا ويح من عنه يوماً عدل ... وقفت عليه بذل السؤال ... وما خاب بالباب من قد سأل

قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٩]

قال أهل التفسير : إن بني إسرائيل لما مات موسى عليه السلام أخذوا في التخليط فاعتزلت عنهم فرقة ، وسألوا الله تعالى أن يباعدهم عن أهل التخليط ، فظهر لهم سرب أسفل الأرض فساروا فيه حتى إذا هم في فضاء من الأرض فنزلوا فيه وبنوا عليه وتناسلوا في ذلك المكان

وداموا فيه إلى أن سار إليهم ذو القرنين فلما وصل إليها رآهم في ذلك المكان وكانوا من أطول الناس أعماراً وليس بينهم فقير وقبورهم على أبواب دورهم ومساجدهم بعيدة وليس على دورهم أبواب ولا عليهم أمير ولا حاكم ، فقال لهم : ما شأنكم فيما تفعلونه : فقالوا : أيها الملك ! أما طول أعمارنا فإن الله تبارك وتعالى يبارك لنا فيها فإنا قوم منصفون فطول أعمارنا لإنصافنا ، وأما يسرنا جميعاً فنحن قوم نقوم بالمواساة ، فإذا أصيب واحد منا بفقر جمعنا له من بيننا أجمعين حتى تجبر ثلمته ولا يبين علينا ذلك فنحن بأجمعنا أغنياء ، وأما قبورنا فجعلناها على أبواب دورنا لأنا أخبرنا عن علمائنا وأنبيائنا أن القبر يذكر الحي الموت ، وأما مساجدنا فبعيدة عنا لأنا روينا وسمعنا عن علمائنا أن الخطا إذا كثرت إلى المساجد كثرت الحسنات ، وأما دورنا فليس عليها أبواب لأنا لا نتلصص ولا يسرق بعضنا بعضاً فلا نحتاج إلى الباب ، وأما الحاكم والأمير فلا يظلم بعضنا بعضاً ونحن نتناصف فلا نحتاج إلى أمير مانع ولا حاكم رادع . فقال ذو القرنين : ما رأيت قوماً مثلكم ولو أردت استيطان بلد كنت أستوطن بلدكم هذا لحسن معاشرتكم ، وجميل أخلاقكم .

وروي أن عابداً من بني إسرائيل عبد الله في صومعته كذا وكذا سنة فاطلع من صومعته يوماً فرأى خضرة وماء جارياً في وسطها فاهتزت نفسه إلى النزول من صومعته فنزل وشرب ماء وقعد متشوّقاً فمرت به امرأة متزينة خارجة من قرية إلى قرية فافتتن بها ثم إنه مرّ به سائل ، وكان له كل يوم قرصتان فآثره بذلك وجوع نفسه ، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل لهذا العابد أبطلت عملك كله بما زنيت ، ثم أحييته كله بصدقتك بالقرصين وإيثارك المسكين على نفسك فهذا ثواب صدقتك إني قبلت ذلك منك ورددتك إلى حالتك :

ردوا علينا ليالينا التي سلفت ... وامحوا الذي قد جرى منا بفضلكم
فكم زللت وأنتم تصفحوا كرماً ... وكم أسأت وأرجو حسن عفوكم
ما لي سواكم وأنتم مشتكى حزني ... وقد جهلت ومالي غير ستركم
ولم أمل عنكمو يوماً إلى أحد ... وليس لي في البرايا غير قصدكم
ذلي لكم شرف في الحب أظهره ... وما أرجي وداداً غير ودكم
لو أن ألف لسان لي أبث بها ... شكري لكم لم أقم يوماً بشكركم
إحسانكم لمسيء في الهوى دنف ... مثلي ومالي سوى عادات خيركم
عودوا وجودوا كما كنتم فليس أرى ... يحلو بسمعي حديثاً غير ذكركم
إن كنت أذنبت فاعفوا سادتي كرماً ... فمن يرجى لعفو الذنب غيركم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته .

المجلس الثالث والعشرون

في صدقة الفطر وما أعدّ الله لمخرجها من الأجر

الحمد لله موفر الثواب للأحباب ، ومكمل الأجر ، وجاعل ظلام الليل ينسخه نور الفجر ، المحيط علماً بخائنة الأعين وخافية الصدر ، ومعلم الإنسان ما لم يعلم به ولم يدر ، المتعالي عن إدراك خواطر النفس وهواجس الفكر ، الموالي رزقه فلم ينس النمل في الرمل ولا الفرخ في الوكر ، جلّ أن تناله أيدي الحوادث على مرور الدهر ، وتقدّس أن يخفى عنه باطن السر وظاهر الجهر ، منته تيجان الرؤوس وقلائد النحر ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس : ٢٢] أحصى عدد الرمل في الفيافي والنمل في القفر ، وشاء فأجرى كما شاء تقدير الإيمان والكفر ، أغنى وأفقر بإرادته وقوع الغنى والفقر ، وأصم وأسمع بمشيئة إدراك السمع ومنع الوقر ، أبصر فلم يخف عليه دبيب الذر في البر ، وسمع فلم يعزب عن سمعه دعاء المضطر في السر ، وقدّر فلم يحتج إلى معين يمدّه بالإعانة والنصر ، وأجرى الأقدار كما شاء في ساعات العصر ، قسم بين الخلائق كما أراد أسباب العسر واليسر ، وسير الرزق في بحار الحكم ولو لم يشأ لم يسر ، هدانا إليه ودلنا عليه بقويم البيان وسليم الفسر ، وخصنا من بين سائر الأمم بشهر الصيام والصبر ، وغسل به ذنوب الصائمين كغسل الثوب بماء القطر ، فله الحمد إذا رزقنا إتمامه وأنالنا عيد الفطر ، أحمده حمداً لا منتهى لعدده ، وأشكره شكراً لا يحصى موصول مدده ، وأتوكل عليه توكل عبد على سيده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص في معتقده ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي نبع الماء من يمين أصابع يده صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وتابعي مقصده ، صلاة تدوم إلى يوم يفرّ الوالد من ولده وسلم تسليماً كثيراً لا ينقضي مدى الزمان ، بل يتجدد بتجدده . عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : « كنا نخرج زكاة الفطر إذ كان فينا رسول الله ﷺ صاعاً من طعام من شعير أو صاعاً من تمر » رواه الترمذي رحمه الله . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ بعث منادياً في فجاج مكة :« ألا إن صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ذكر أو أنثى حر أو عبد صغير أو كبير مدّان من قمح أو سواه صاع من طعام » رواه الترمذي رحمه الله . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر على الذكر والأنثى والحر والمملوك صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير » رواه البخاري ومسلم والترمذي رحمهم الله . وعن نافع عن ابن

عمر رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بإخراج الزكاة قبل صلاة العيد يوم الفطر » وهو الذي استحبه أهل العلم أن يخرج الرجل صدقة الفطر قبل صلاة العيد لقوله ﷺ : « أغنوهم من المسألة في مثل هذا اليوم » . ويستحب يوم الفطر للإنسان أن يغتسل ويستاك ويلبس أحسن ثيابه ويخرج صدقة الفطر ويأكل شيئاً ثم يتوجه إلى المصلى ماشياً وأن لا يركب إلا من عذر وأن يكون خروجه إلى المصلى من طريق ويرجع من طريق آخر لأن الله تبارك وتعالى يبعث ملائكة يجلسون في الطريق يكتبون اسم كل من مرّ عليهم فلذلك استحب الخروج من طريق والرجوع من أخرى . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا خرج يوم العيد من طريق رجع من غيره » رواه الترمذي رحمه الله . وعن بريدة عن أبيه : « كان النبي ﷺ لا يخرج يوم الفطر حتى يطعم ولا يطعم يوم الأضحى حتى يصلي » رواه الترمذي رحمه الله . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ كان يفطر على تمرات يوم الفطر قبل أن يخرج إلى المصلى » ، وعن أم عطية رضي الله عنها « أن رسول الله ﷺ كان يخرج الأبكار والعواتق وذوات الخدور والحيض في العيدين . فأما الحيض فيعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين ، قالت إحداهن : يا رسول الله إن لم يكن لها جلباب ؟ قال فلتعرها أختها جلابيبها » وراه الترمذي رحمه الله ، وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لو رأى رسول الله ﷺ ما أحدث النساء بعده لمنعهنّ المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل » . وروي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : أكره الخروج اليوم للنساء في العيدين فإن أبت المرأة إلا الخروج فليأذن لها زوجها أن تخرج في أطمارها ولا تتزين ، فإن أبت أن تخرج كذلك فللزوج أن يمنعها عن الخروج . وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : من أحيا ليلتي العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي أنه قال : أعظم الليالي ليلة الأضحى والفطر . وعن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع ليال يفرغ الله تعالى فيهنّ الرحمة على عباده إفراغاً : أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة الأضحى » وإنما سمي العيد عيداً للعود إلى الفرح والسرور ، وقال بعضهم : سمي عيداً لأنه يوم شريف كريم فللعاقل أن يستقبله بالتعظيم والتبجيل لله تعالى ويكثر من ذكر الله تعالى لأن يوم العيد مثاله كيوم القيامة يسمع فيه النفخة والصعقة ، فضرب الطبول تذكرة لها والنفخ في البوق تذكرة للنفخ في الصور ، واجتماع الناس في المصلى تذكرة لاجتماع الناس في القيامة على اختلافهم واختلاف أحوالهم ، فمنهم لابس بياض ، ومنهم لابس سواد ، ومنهم راجل ومنهم راكب ، ومنهم فرح ، ومنهم محزون ، ومنهم من ينقلب إلى نعمة ، ومنهم من ينقلب إلى نقمة ، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يحشر

الناس من قبورهم على ثلاثة أثلاث : ثلث على الدواب ، وثلث يمشون على أقدامهم ، وثلث يسحبون على وجوههم » والناس في المصلى ينتظرون الإمام كذلك في المحشر والوقوف في العرصات انتظار ما وعد الله تعالى ، والإشارة في الخطبة هو أن الإمام يخطب والناس سكوت كذلك الباري سبحانه وتعالى يحاسب الناس ويعاقب ونحن سكوت ومراتبهم في المصلى تشبه مراتبهم يوم القيامه منهم القاعدون في الظل ، ومنهم القاعدون في الشمس كذلك في القيامة منهم من يلجمه العرق ، ومنهم من يكون في ظلّ العرش ، وكذلك انصرافهم من المصلى بعضهم مقبول وبعضهم مردود . وعن وهب بن الورد رضي الله عنه : أنه خرج يوم العيد فجعل يحثو التراب والرماد على رأسه ، فقيل له : هذا يوم السرور والزينة ؟ فقال : هذا يوم السرور والزينة لمن قبل صومه . وخرج حسان بن أبي سنان رحمه الله تعالى يوم عيد ، فلما عاد قالت له زوجته : كم من امرأة حسناء قد رأيت ؟ فقال : والله ما نظرت إلا في أبهامي منذ خرجت من عندك إلى أن رجعت إليك ، وإنما بالغ السلف في غضّ البصر حذراً من فتنة النظر وخوفاً من عقوبته . وقال بعضهم : إياك والنظر فإنّه ينقش في القلب صورة المنظور ، وإنما الدنيا عيوبها بادية كم فتحت باب بلية ولا حيلة كحيلة عين كحيلة :

العين أصل عناها فتنة النظر ... والقلب كل أذاه الشغل بالفكر
كم نظره نقشت في القلب صورة من ... راح الفؤاد بها في الأسر والحذر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين العين موقوف على الخطر
يسرّ مقلته ما ضرّ مهجته ... لا مرحباً بسرور جاء بالضرر
فالقلب يحسد نور العين إذ نظرت ... والعين تحسده حقاً على الفكر
يقول قلبي لعيني كلما نظرت ... كم تنظرين رماك الله بالسهر
فالعين تورثه همًّا فتشغله ... والقلب بالدمع ينهاها عن النظر
هذان خصمان لا أرضى بحكمهما ... فاحكم فديتك بين القلب والبصر

[وكان الربيع بن خيثم] من شدة غضه لبصره وإطراقه يظن الناس أنه أعمى وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود رضي الله عنه عشرين سنة فإذا طرق الباب خرجت إليه الجارية فتراه مطرقاً غاضاً بصره فتقول لسيدها : صديقك ذاك الأعمى قد جاء فكان ابن مسعود رضي الله عنه يتبسم من قولها ، وكان إذا نظر إليه يقول : وبشر المخبتين أما والله لو رآك محمد ﷺ لفرح بك وأحبك . وكان بعض الصالحين رحمه الله يقول : يا قوم غرقت السفينة ونحن نيام هذا آدم لم يسامح بلقمة وداود لم يتساهل له في نظرة فكيف بنا ونحن على ما نحن فيه من سوء الفعال

وقبيح المقال وأشد الوبال والنكال والنظر إلى غير الحلال ، ثم قال :

يا من رأى سقمي يزيد وعلتي تُعيي طبيبي لاتعجبن فهكذا تجني العيون على القلوب

[قال الشيخ جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله] : فأما عقوبة النظر فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يتشلشل دماً فقال له رسول الله ﷺ : ما لك ؟ قال : مرت بي امرأة فنظرت إليها فلم أزل أتبعها نظري فاستقبلني جدار فضربني وصنع بي ما ترى ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيراً عجل له عقوبته في الدنيا » فكم من أناس صلوا في أوّل الشهر صلاة التراويح وأوقدوا في المساجد طلباً للأجر المصابيح وملؤوا بالعبادات المكان الفسيح ونسخوا بإحسانهم كان فعل قبيح . اقتنصهم عن آخرهم الصائل فقهروا وأسرهم الصائد فأسروا وغمسهم التلف في بحاره فمقلوا ولم ينفعهم المال ولا الآمال لما نقلوا ، رحلوا والله عنا قدماً ونقض ما بنوه من الدنيا هدماً أدارت عليهم المنون رحاها وأحلت وجوهم الثرى فمحاها ، انتهبتهم الآفات من غير تعويض ونظرت إليهم بطرف غضيض فقطعت حبل المنى الموصول وفرقت جميع الأمل المحصول أعدمتهم والله صوماً وفطراً وجعلت قبورهم لهب الرياح قطراً وزودتهم الحنوط عطراً وأصبح كل منهم في اللحد سطراً وهكذا حالك عن قريب فتيقظ وهكذا مآلك فاجتهد وتحفظ يا قليل الاعتبار وكم قد سمع ورأى ، يا طويل الأمل ورفيقه قد نأى يا مشغولاً باللهو ومفتوناً بالمنى يا متعلقاً بما يوقن أن عقباه الفنا ، أما تعد توبتك فقل لي متى ، إنما الشيب رسول من المنون قد أتى ، أما أكثر العمر في التسويف قد مضى ، أما أنت غرض سهم القدر والقضا يا من راح إلى المعاصي كثيراً وغدا الأمر مجموع وسيفصل غداً ، يا قليل الزاد وحادي رحيله قد حدا تأهب للتلف وتهيأ للردى :

أما المشيب فقد كساك رداءه وأزال عن كتفيك أردية الصبا
ولقد مضى القوم الذين عهدتهم لسبيلهم ولتلحقن بمن مضى
ولقلما تبقى فكن متفطناً ولقلما يصفو سرورك إن صفا
وهو السبيل فخذ لذلك عدّة فكأن يومك عن قليل قد أتى
لا يشغلنك لو وليت عن الذي أصبحت فيه ولا لعل ولا عسى
خالف هواك إذا دعاك لريبة فلرب خير في مخالفة الهوى
علم المحجة بين لمريده وأرى القلوب عن المحجة في عمى
ولقد عجبت لهالك ونجاته موجودة ولقد عجبت لمن نجا
وعجبت إذ أخشى الحمام وليس لي دون الحمام وإنْ تأخر منتهى

مع أن ساعات النهار تدب لي ... رسلاً وإني لا أزال على الخطا
فلئن نجوت فإنما هي رحمة الـ ... ـرب الرحيم وإن هلكت فبالجزا
يا ساكن الدنيا أمنت زوالها ... ولقد ترى الأيام دائرة الرحا
أين الذين بنوا الحصون وجندوا ... فيها الجنود وأوثقوا فيها العرا
وذوو المفاخر والمنابر والمحا ... ضر والعساكر والدساكر والقرى
أفناهم ملك الملوك فأصبحوا ... ما فيهم أحد يحسّ ولا يرى
حتى متى لا ترعوي يا صاحبي ... حتى متى وإلى متى وإلى متى

[قال أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله] : رأيت في الطواف رجلاً بعين واحدة وهو يقول في طوافه : أعوذ بك منك ، فقلت له : ما هذا الدعاء ؟ فقال : إني مجاوز خمسين سنة فنظرت إلى شخص يوماً فاستحسنته فإذا بلطمة وقعت على عيني فسالت على خذي ، فقلت : آه فرقعت أخرى ، فإذا قائل يقول : لو زدت لزدناك . وقال محمد بن عبد الله : كنت مع أستاذي أبي بكر رحمه الله فمرّ حدث فنظرت إليه فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه ، فقال : يا بنيّ لتجدن غبهاً ولو بعد حين فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي ذلك الغبّ فنمت ليلة وأنا متفكر فيه فأصبحت وقد نسيت القرآن كله وقائل يقول لي : هذا غبّ تلك النظرة .

[وقال أبو بكر الكتاني رحمه الله] : رأيت بعض أصحابنا في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك قال : عرض عليّ سيئاتي ، وقال : فعلت كذا وكذا ، فقلت : نعم ، قال وفعلت كذا وكذا ، فقلت : نعم ، قال : وفعلت كذا وكذا فاستحييت أن أقرّ ، فقلت له : ما كان ذلك الذنب ؟ فقال : مر بي غلام حسن الوجه فنظرت إليه فأقمت بين يدي الله عز وجل سبعين سنة أتصبب عرقاً من خجلي منه ثم عفا عني بفضله . وروي عن أبي عبد الله الزراد أنه رؤي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً استحييت أن أقرّ به فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقيل له : ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرت إلى شخص جميل ، وقال بعضهم في النظر وخطراته :

عاتبت قلبي لما ... رأيت جسمي نحيلا ... فألزم القلب طرفي ... وقال كنت الرسولا
فقال طرفي لقلبي ... بل أنت كنت الدليلا ... فقلت كفا جميعا ... تركتماني قتيلا
وقد أطلقت نواحي ... عليكما والعويلا ... ومن رضي بالذي لا ... يحل كان جهولا
يستهون الأمر فيه ... يراه أمراً مهولا ... فيفتدي القلب منه ... جهراً سقيماً عليلا
فتب إلى الله مما ... جنيت تعط القبولا ... وليس ثم عدو ... إليك يلقي سبيلا

فيا بن آدم عيوبك مطلقة في الحرام ، ولسانك منهمل في الآثام وجسدك يتعب في كسب

الحطام كم من نظرةٍ محتقرة زالت بها الأقدام ، واعلموا عباد الله أن يوم العيد يوم يسعد في ناس ويشقى فيه عبيد فطوبى لعبد قبلت فيه أعماله والويل لمن عمله عليه مردود وهو يوم يهنأ فيه المقبول ويعزى فيه المطرود فاجتنبوا رحمكم الله فيه قبيح الأعمال ، واسعوا في مرضاة الملك ذي الجلال عسى ينجيكم من رديء الأعمال ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كان ليلة الفطر سميت ليلة الجائزة ، فإذا كانت غداة الفطر يبعث الله تعالى الملائكة في كل بلد فيهبطون إلى الأرض فيقفون على أفواه السكك فينادون بصوت يسمعه جميع الخلائق إلا الجن والإنس فيقولون : يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنب العظيم ، فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله تبارك وتعالى : يا ملائكتي ! ما جزاء الأجير إذا عمل عمله ؟ فتقول الملائكة : إلهنا وسيدنا جزاؤه أن يوفى أجره فيقول الله تبارك وتعالى : يا ملائكتي ! أشهدكم أني قد جعلت ثوابهم من صيامهم شهر رمضان وقيامهم رضاي ومغفرتي فيقول الله تبارك وتعالى : سلوني فوعزّتي وجلالي لأسترن عليكم عثراتكم ما راقبتموني فوعزّتي وجلالي لا تسألوني اليوم في جمعكم هذا شيئاً لآخرتكم إلا أعطيتكم ولا لدنياكم إلا نظرت لكم ، وعزّتي وجلالي لأسترن عليكم عيوبكم فلا أخزيكم ولا أفضحكم بين يدي أصحاب الحدود فانصرفوا مغفوراً لكم قد أرضيتموني ورضيت عنكم فتفرح الملائكة ويستبشرون بما يعطي الله تعالى هذه الأمة إذا أفطروا .

[**إخواني**] ما أحسن حال من خلعت عليه خلع القبول وبلغ غاية مقصوده ونهاية مطلوبه وما أشقى من ردّ عليه ماضي صومه وسالف تعبه ولم يحظ فيما أسلفه إلا بشدة نصبه ، واعجباً كيف يفرح بالعيد مطرود ومهجور . قال وهب بن منبه رضي الله عنه : خرج ثلاثة أحبار إلى العيد ، فقال أحدهم : اللهم إنك أمرتنا فيما أنزلت علينا أن نعتق العبيد في هذا اليوم ، ونحن عبيدك فاعتق رقابنا من النار ، وقال الآخر : اللهم أنك أمرتنا فيما أنزلت علينا أن لا نرد المساكين ونحن مساكينك فلا تردنا ، وقال الآخر : اللهم إنك أمرتنا فيما أنزلت علينا أن نعفو عمن ظلمنا ونحن عبيدك قد ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا إنك أنت أرحم الراحمين :

عيدي مقيم وعيد الناس منصرف ... والقلب مني عن اللذات منحرف
ولي قرينان ما لي عنهما خلف ... طولُ الحنين وعين دمعها يكف
والعيد عودي إلى مولاي أقصده ... وإنني بالخطا والذنب أعترف
لعل يشفع لي ذلي ومسكنتي ... فيه عسى ينجلي ضري وينكشف
فهو الكريم الذي عمت مواهبه ... فجاءنا من هدايا فضله تحف

المجلس الرابع والعشرون

في ذكر معراج النبي ﷺ وشرف وكرم

الحمد لله الذي قرّب من اختار من عباده إلى حضرة وداده ، واصطفى واجتبى من أحبابه من صلح لحضرة اقترابه وسقاه من صفو شرابه ما صفا ، ومنّ على من اجتباه من خلقه وجعل منهم أنبياء وأصفياء وأولياء وخلفا ، واختار المختار محمداً ﷺ وميزه على سائر الخلق قبل أن يكونوا في الأصلاب نطفاً ، فاصطفاه منعماً ومتحفاً ، وأعطاه بكرمه فخراً وكان له معيناً ومردفاً ، توسل به آدم إلى ربه فقبل توبته وعفا ، ودعا به نوح فنجاه في يمه وكان لقومه مغرقاً متلفاً ، واستجار به الخليل إلى ربه من نار نمروذ ففك عنه القيود وخمد لهيبها وانطفا ، وتوسل به إسماعيل فأغيث بالفدا ، وكان له من الردى معيناً ومسعفاً ، وسأل به موسى الكليم عطف الملك الكريم فعاد عليه متعطفاً ، والتمس بركته عيسى فكساه مولاه عقداً نفيساً إذ جاء مبشراً بأحمد المصطفى ، فهو سيد الكونين ، وإمام الثقلين ، ومن أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، إلى قاب قوسين معظماً مشرفاً ، وكان البراق مركبه وجبريل يحجبه والملائكة ترقبه ويهدى إليه من البشر والهنا طرفاً وتحفاً ، فلما وصل ركابه إلى المسجد الأقصى وجده الأنبياء مرتصاً ، فأمّ بهم وكل منهم دعا له ووصى فقال في حقه من خصه بالإسراء خصاً : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ [الإسراء : ١] ، فكان ذلك فخراً له وشرفاً ، ثم نصب له المعراج إلى السماء فرقى وسما وصار مبجلاً مفخماً ، موقراً معظماً مكرماً مؤيداً ، مقدماً حاكماً متصرفاً ، هذا وجبريل في ركابه لا يبغي عنه في ذهابه حولاً ولا تحرفاً ، فاستفتح أبواب السماء بالتعظيم والتبجيل ؟ فقيل : من معك يا جبريل ؟ فقال : محمد المصطفى ، قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحباً ولنعم المجيء جاء متوجاً مشرفاً فتلقته الملائكة الكرام ، وسلم على الأنبياء بالاحترام فكلّ رحب به وأضحى من بركة بركته مغترفاً ، فتجاوزهم وسار وقطع الرسوم والآثار ، ولم يبلغ تلبثاً ولا توقفاً فسمع صرير الأقلام وتسبيح الأملاك ورأى الجنة والنار ، وما أعد الله فيها للأبرار والفجار ، فخمد لهيب النار ببركة قدومه وانطفا ، وعطر رضوان في الجنة قصوراً وغرفاً ، ثم رفع إلى البيت المعمور ، وعاين الضياء والنور ، فرآه يدخله في كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه إلى ﴿ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : ٢٧] ندماً وأسفاً فلما وصل به جبريل إلى سدرة المنتهى تأخر عندها ، فقال له الرسول الجليل : يا جبريل أههنا يترك

الخليل الخليل متخلفاً ؟ فقال : يا سيد المرسلين ، وحبيب رب العالمين ، أنت صاحب السرّ المكتوم ، والعلم المرقوم ، ومن ههنا تنطمس الرسوم وتندرس العلوم ، فهذا مقامي المفهوم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، فسر في مطالع طوالع سعدك مشرّفاً ، وأرق من أنوار عزّك ومجدك رفرفاً رفرفاً :

رقى رفرف الأنوار والليل قد صفا وهبّ نسيم الوصل وانتسخ الجفا
وطاب له ذكر الخطاب منادماً وراق له ذاك الشراب تلطفا

فما زال المختار بتجاوز حجب الأنوار ، ويخترق الأستار ، يوقى رفرفاً رفرفاً ، إلى أن ذهب الأين واختفى ، وزال البين وانتفى ، وسلك المصطفى ﷺ حسن الأدب واقتفى وشاهد جمالاً ما زال بالوحدانية معرفاً ، وبالفردانية متصفاً ، فوقف موقف الحضور ، وقد ألبس خلع الضياء والنور ، مطرزة بطراز السرور ، مرقومة برقوم الحبور ، وقد وصل حبل الوصل وانتفى الجفا ، فبدأه السلام بالسلام متحفاً ، وحباه بالإنعام والإكرام تلطفاً ، وقال له العليّ الأعلى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] فسراج نبوّتك يضيء على أمتك إلى يوم القيامة ما وهن ولا انطفا ، فأنت الشاهد وأنا المشاهد ، وقد فزت بأشرف المشاهد ، والشاهد لا يكون في تحقيق شهادته متردداً ولا متوقفاً ، فاشهد بما رأيت لتكون للناس بالوحدانية معرفاً ولي بالعبودية معترفاً ، فقد أسمعتك كلامي شفاها وجعلته لك شفا ، وأشهدتك جمالي وكنت إليه متشوّقاً ، ولذذتك بخطابي فكان لسمعك مشنفاً ، وسقيتك من لذيذ شرابي كأساً راق ومن الأكدار قد صفا ، فقل لمن نام عني وغفا ، وتعوض عن وصلي بالجفا :

يا ذا الذي قد نام وهناً أو غفا ماذا يفوت النائمين من الوفا
قم يا غفولاً عن وصال حبيبه واذر الدموع على الخدود تأسفا
واسمع ودع عنك التكلف إنه ما طاب من أضحى هواه تكلفا
لي بالعقيق وبين جرعاء الحمى بدر رشيق القدّ أسمر أهيفا
أعيا عيون الناظرين بحسنه وقضى لطرف نالـه أن يطرفا
إن يبد في ليل ترى بدراً بدا أو ينثني قلت الحسام المرهفا
ولقد علمت بأن طه أحمدا خير الأنام المجتبى والمصطفى
هو سيد الكونين والنور الذي ظهرت شريعتنا به بعد الخفا

وهـو المشـفع في القيامـة وحـده فـيمن هـوى في النـار أو مـن أشـرفا
هو صاحب الخلق العظيم فلا يرى إلا صـفوحاً عاطفـاً متلطفـا
هو صاحب المعراج من أسرى به لـيلاً إلى أسـنى مقـام أشـرفا
ملئـت بـه الآفـاق نـوراً بـاهراً وعـلا علـى مـتن الـبراق مشـرّفا
كانـت ملائكـة السـما خـدماً لـه ولـه جنـان الخلـد أبـدت زخرفـا
أوحـى إليـه الله جـل جلالـه أسـراره ولغـيره لـن تكشـفا
يـا سـيد الكـونين جئتـك أشـتكي مـن جـور دهـر لي غـدا متعسـفا
أنـوي المسـير إليـك وهـو يصـدني والقلـب نحـوك قـد غـدا متشـوفا
والعمـر قـد ولى ضـياعاً حسـرة وأنـا لأجلـك قـد فنيـت تأسـفا
فعسـى لـديك عزيمـة نبويـة لتنـيلني قصـدي وعيشـاً قـد صـفى
صـلى عليـك الله يـا علـم الهـدى مـا نـاح قمـري الأراك ورفرفـا

[وروى] الطبري في كتابه : أن رسول الله ﷺ لما بلغ إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر أسري به من بين زمزم والمقام إلى بيت المقدس وشرح صدره بأمر الملك العلام ، واستخرج قلبه فغسل بماء زمزم الشافي من الآلام ، أعيد مكانه بعد أن حشي إيماناً وحكمة بلطف وسلام ، ثم أسري به إلى أشرف مقام ، وكان السرّ في الإسراء به خفياً عن الأفهام ، دقيقاً على الأنام ، وذلك أنه لما أنزل عليه قول تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ قال رسول الله ﷺ : يا رب أنت شرعت لي أن الشاهد لا يشهد إلا بما يرى ، فأوحى الله تعالى إليه أيها السيد نحن نسري بك إلينا لتشاهد الملكوت الأعلى وتخبر عن العيان بما رأته العينان في الجنان والنيران . وقيل : لما أصعده وأشهده قال له : يا أيها النبي قد شهدت لي فاشهد عليّ ، قال : يا رب وبم أشهد عليك ؟ قال : اشهد عليّ أنه من جاءني وهو يشهد أن لا إلـه إلى الله وأنك رسول الله غفرت له كل ذنب عمله في سره وجهره . وقيل : كشف الله تعالى له الموانع وأزال الحجب المعترضة وطوى له الأرض وقرب الأقصى إلى وأحضره بين يديه ثم قال : يا محمد انظر وأخبرهم فكان كلما سألوه عن شيء نظر إليه وقال لهم على العيان والمشاهدة ، والله على كل شيء قدير ، فانقطعوا وأخرسوا ثم قصّ عليهم صعوده من بيت المقدس إلى السماء فلما لزمتهم الحجة بتحقيق الإسراء إلى بيت المقدس من مكة في ساعة واحدة من الليل ، وبينهما شهر للمسافر المسرع لزمهم الإقرار بصعوده إلى السماء . لأن من قدر على طيّ الأرض وهي تراب كثيف فهو أقدر على طيّ الفضاء والهواء وهو شيء لطيف . وقيل لرسول

الله ﷺ : يا رسول الله سمعنا منك أن عيسى بن مريم كان يمشي على الماء ؟ قال : نعم ولو أراد لمشى على الهواء ولكن لزم الأدب مع صاحب الإسراء إذ كان ذلك مخصوصاً بالمصطفى حين رقى السموات وقطع الفلوات وكشف له ألف حجاب من ظلمة وألف حجاب من نور ، والمشي في الهواء أعجب من المشي على الماء لأنه ألطف من الماء ، وأيضاً الماء يمشي عليه الأبرار والفجار والمؤمنون والكفار بواسطة خشبة أو لوح أو سفينة ، والهواء لا يقدر أحد أن يمشي عليه بشيء من ذلك إلا بعناية ربانية وموهبة إلهية . قال بعض العلماء : كان رفيقه جبريل ، والآخذ بركابه ميكائيل ، والغاشية بيد إسرافيل ، والداعي له الرب الجليل ، والمدعو محمداً المصطفى الرسول الجميل ، وموضع الدعوة قاب قوسين أو أدنى ، والخلعة الشفاعة في العصاة من أمته ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى : ٥] .

يكفيه فخراً بأن الله فضله ... على السماء وما فيها من الزمر
وكم له دون خلق الله معجزة ... تتلى على الناس في الآيات والسور
وليلة الوصل كم في طيها عجب ... فاسمع لها سيرة من أعجب السير
كانت على غير وعد من زيارته ... وأطيب الوصل وصل غير منتظر
أوحى إليه الذي أوحى فلا أحد ... يدري الحقيقة من أنثى ومن ذكر
أعطاه فوق الذي يرضى وخصصه ... بالقرب والفوز والإقبال والظفر
وعطر الكون والآفاق أجمعها ... بطيب نفحة ريا نشره العطر

[وذكر الشيخ الإمام أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في بعض كتبه] أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى جبريل عليه السلام : أن قف على أقدام عبوديتي ، واعترف بعزّ ربوبيتي ، وامرح في ميدان شكري ، واعرف عظم شأني وقدرتي ، ها قد مننت عليك ، فاسمع ما أوحيه إليك ، فقال : إلهي أنت اللطيف ، وأنا الضعيف ، وأنت المقتدر ، وأنا المفتقر ، فقال الله تعالى : يا جبريل خذ علم الهداية ، وبراق العناية ، وخلعة القبول والولاية ، ولباس الرسالة ، ومنطقة الجلالة ، وانزل مع سبعين ألف ملك إلى باب شفيع الأمم ، سيد العرب والعجم ، الموصوف بالفضل والكرم ، فقف ببابه ولذ بجنابه فأنت الليلة صاحب ركابه ، ويا ميكائيل خذ بيدك علم القبول ، وانزل في سبعين ألف ملك على باب حجرة الرسول ، فأنت اليوم صاحب غاشيته والمندوب على خدمته . ويا إسرافيل ويا عزرائيل افعلا كما فعل جبرائيل وميكائيل ، فكونوا الليلة مطرقين بين يدي سيد الأوّلين والآخرين . ويا جبريل زد من ضوء الشمس على نور القمر ، ومن نور القمر على نور الكواكب ، واجعلهما شمعتين بين يدي سيد الكونين فقال : إلهي قرب قيام الساعة ؟ قال : ولكن حبيب أريد أن أقربه وأطلعه على الأسرار ، وأخلع

عليه خلعة الضياء والأنوار ، وهو محمد المصطفى المخصوص بالصدق والوفاء فانزل إليه ، وقبل الأرض بين يديه وكن له في هذه الليلة خادماً ، ولركابه ملازماً ، فنزل إليه جبريل بالبشر والتهاني ، وهو راقد في بيت أم هاني فناداه : يا أيها النبي المختار ، قم إلى حضرة الكريم الغفار ، فإن الملائكة لك في الانتظار ، فقام على أقدام الأشواق ، فأركبه جبريل البراق فركبه وساق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وقطع سفراً لا يحدّ ولا يحصى وسارت الملائكة بين يديه ، وأكثروا من الصلاة والسلام عليه وناداوه : أيها السيد الكريم والرسول العظيم التفت بنظرك إلينا ، وتفضل بحسن عطفك علينا ، فقال : من نقل قدماً إلى غير المحبوب تعب ، ومن خطا خطوة لغير المطلوب نصب ، ومن وصل إلى هذا المقام الأعلى كيف يلتفت إلى غير المولى ؟ فلما صحت عزائم إرادته واشتغل بالخالق عن سائر مخلوقاته أذعن لسان شكره وما ونى ، وقال : إن أنا أفرطت في خدمته فمن أنا ، فلما اتصف بصفات الأدب والتعليم أدناه إلى مراتب التعظيم ، فدنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى :

هنيئاً له لما تملى بنوره ... وفاز من الرضوان بالمنزل الأسنى ... ترقى به الروح الأمين إلى العلا
فأودعه سراً وقد فهم المعنى ... وأحضره المولى بحضرة قدسه ... فيا حبذا المولى ويا حبذا المغنى
فشاهد معنى لا يحدّ لواصف ... وأدناه منه قاب قوسين أو أدنى ... فكم لك عند الله يا خير مرسل
مناقب فضل لا تبيد ولا تفنى ... وقال له ها قد منحتك رؤيتي ... فمن نال مني نظرة فقد استغنى

ثم نودي : يا محمد أنت الليلة ضيفنا وقد جئت إلى حضرتنا وتمتعت بقربنا فما ضيافتك وما الذي تريد ؟ فقال : إلـهي كل ما جدت به على الأنبياء قبلي خلع مستعملة لا أريدها ، قيل له : فما الذي يرضيك أيها الحبيب وما الذي نفسك به تطيب ؟ فقال له بلسان حاله عند تحقيق آماله : يا ذا الكرم والجود أنت أعلم بالمطلوب والمقصود ، فقيل له : أيها السيد المشفع الشافع ، وإن كنت تريد خلعة لم يصل إليها واصل ولم يطمع فيها طامع ولا طرق ذكرها سمع سامع فدونك فادخل خزائن كرمنا وتحكم في ملابس فضلنا ونعمنا فكانت خلعته ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] طرازها ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٨] توّج بتاج ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] ثم قيل : يا محمد أتدري أين أنت وفي أيّ مقام ؟ فقال : أنت أعلم وأنت العلام ، قال : ما رأى مقامك هذا أحد من الأنام نقلتك من منزل إلى منزل ومن عالم إلى عالم ومن معراج إلى معراج حتى لم يبق في ملكوت السموات والأرض عجيبة إلا أطلعتك عليها ولا منحة غريبة إلا أوصلتك إليها :

تعالى الله عن قرب وبعد ... عن قدر يقدر بالمكان ... وجلّ بعزّه عن كل وصف
يقدر في العقول وفي العيان ... فلا الألحاظ تدركه تعالى ... ولا الألفاظ منا والمعاني

فهـــذا كلـــه في الله يفـــنى وجـــل عـــن التباعـــد والتـــداني

فلما حضر في الحضرة الأزلية وشرب بكاسات الصمدية أنارت بطلعته الكائنات وبشرته ببلوغ قصده ملائكة السموات فنودي ولم ير أحداً : الله حافظك ومولاك فاشكره على ما أولاك قال : فألهمت قول التحيات المبارك الصلوات الطيبات لله ، فأجبت : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فقلت : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فأشركت إخواني من الأنبياء وأمتي فيما خصصت به من الفضل الوافر والثواب الباهر ، فأجابت الملائكة : أشهد أن لا إلّـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، ثم نوديت : ادن يا محمد فدنوت ، قيل : دنا محمد بالمعرفة فتقرب إلى الرب بالمحبة ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم : ٨] دنا محمد بحبه فتدلى عليه الوحي من ربه دنوّ رحمة ولطافة لا دنوّ قطع مسافة بل ذهب الأين من البين والمعنى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٩] فانتفى المكان والزمان وكان معه حيث لا جهة ولا مكان ولا وقت ولا زمان ولا حين ولا أوان ولا أفلاك ولا أكوان :

كـــان مـــن قبـــل أن يكـــون مكـــان وأوان وقبـــل كـــل زمـــان
أول آخـــر سميـــع بصـــير وفـــرد مـــنزه عـــن ثـــان
بـــالنبي الكـــريم أســـرى إليـــه ســـيد الرســـل مـــن بـــني عـــدنان
ثم أدنـــاه قـــاب قوســـين منـــه ثم أوتي الكتـــاب بالتبيـــان
ثم أوحـــى إليـــه أســـرار علـــم بـــاهرات بأوضـــح البرهـــان

فلما رجع المختار من سفر الأسرار بالإسراء قد عمه الفرح والاستبشار والغبطة والسرور وقد تم له السعد والحبور اعترضه صاحب الطور موسى الكليم فقال له : يا أيها النبي الكريم ماذا افترض ربك على أمتك من الصلوات ، يا سيد الكائنات ؟ فقال : خمسين صلاة في اليوم والليلة ، فقال : يا سيد الأنام عد إلى ربك فاسأله لهم التخفيف فإن فيهم العاجز والضعيف ، فلم يزل يردّده موسى عليه السلام حتى جعلها خمس صلوات على الدوام :

وإنمـــا الســـر في موســـى يـــرددده ليجتلـــي حســـن ليلـــى حـــين يشـــهده
يبدو سناها علـى وجـه الرسـول فيـا لله درّ رســـول حـــين أرصـــده

فلما بلغ رسول الله ﷺ ما تمنى وخلا بمشاهدة مولاه وتهنّى ، قيل له : تمنّ واطلب ما تريد منا ، فقد أبحنا لك الطلب وبلوغ المرام ، فقال : أريد أن يصيب أمتي من تشريف خلعتي لينالهم من مواهب رحمتي جزيل الإنعام ، قيل له : يا سيد الكائنات ، ويا من تشرفت بوطء أقدامه الأرض والسموات ، قد خلعنا عليهم خمس خلع ، وقد أشرق كوكب سعدهم من أفق

مجدهم وطلع وهنّ الخمس صلوات ، التي يرتاحون إليها في الخلوات . فقال : وما صفة هذه الخلع ، وما أسماؤها التي ظهر على الآفاق نورها وسطع ؟ فقيل له : اجلس على مراتب التقريب ، يا أيها الحبيب . فها هي تزفّ بين يديك ، وتجلى عليك ، فأول عروس جليت عليه عروس مشرقة الأنوار عالية المقدار ، قد فاح عطرها في الأقطار ، ولاح نورها لذوي العقول والأبصار ، فنودي عند ذلك : يا من أمن بوصلنا من الصدود والهجر ، وحصل لأمته ببركته جزيل الثواب والأجر ، تسمى هذه الخلعة صلاة الفجر ، ثم جليت عليه عروس في حلل البياض ، وقد أمن من الصدود والإعراض ، فنودي عند ذلك : يا صاحب المناقب الزهر ، ومن فضلت أمته على سائر الأمم بالصلاة والطهر ، تسمى هذه الخلعة صلاة الظهر ، ثم جليت عليه عروس في حلل النور الباهر ، وقد أشرق الكون بنور وجهه الزاهر ، فنودي عند ذلك : يا من ليس لصفاته حدّ ولا حصر ، ومن قلد بسيف القهر والنصر ، تسمى هذه الخلعة صلاة العصر ، ثم جليت عليه عروس في حلل الكمال ، وقد بلغ جميع المقاصد والآمال فنودي عند ذلك : يا أشرف من هذب ، وأفضل من أدنى وقرب تسمى هذه الخلعة صلاة المغرب ، ثم جليت عليه عروس في حلل الوفا وقد نال عزًّا وشرفاً وبلغ نهاية الاجتباء والاصطفا فنودي عند ذلك : يا أحسن من نشا وأفضل من هرول ومشى تسمى هذه الخلعة صلاة العشاء فهذه خمس صلوات في التكليف وخمسون بالأجر والتضعيف وقد زدتك يا صاحب الحوض والكوثر أني لا أقبل ذكر من ذكرني حتى تذكر ، فلما جليت عليه خلع الصلوات وعرائس الصلوات ناداه منادي القبول : طوبى لمن حافظ عليها وفاز ببلوغ المقصود والمأمول فقل لمن لم يجد من أسر هواه خلاصاً ولا فكاكاً ولا وجد له سبيلاً ولا حراكاً : ابك على نفسك بدمع الأسف على ما سلف وإن لم تبك فتباكَ :

يـا غاديـاً نحـو الحبيـب عسـاكا ... تقـرا السـلام إذا وصـلت هناكـا
وعسـاك تجـري ذكـر مثلـي عنـده ... فهـو الشـفاء لـدائنا ولـداكا
وقل السلام عليك يا خير الورى ... مـن شـيق طـول المـدى يهواكـا
أنت الـذي لـولاك مـا سـرت الصبا ... كـلا ولا عـرف الهـدى لولاكـا
لـولاك مـا غفـرت لآدم زلـة ... لمـا التجـا في وقتـه لحماكـا
لـولاك مـا رفعـت ليـونس رتبـة ... لمـا نجـا مـن حوتـه بهـداكا
لـولاك مـا كـان ابـن عمـران ارتقى ... طـور الخطـاب ونـال مـن نجواكـا
ولقـد سـريت إلى المهـيمن ليلـة ... والله مـا أحـد سـرى مسـراكا
بالجسـم كـان سـراك لا عـن ريبـة ... وتحكمـت في ملكـه عيناكـا

وطلبت تخلع نعل رجلك هيبة ... فأتى الندا لا تخلعن نعلاكا
ورقيت تخترق السموات العلا ... متوصلاً حتى بلغت مناكا
ناداك جبريل الأمين مخاطباً ... لك بالكرامة عن رضا مولاكا
إن كان آدم صفوة من خلقه ... فقد اصطفاك لحبه وهداكا
أو كان نوح قد نجا بسفينة ... فمن العدا في الغار قد نجاكا
أو كان إبراهيم أُعْطِيَ خلة ... فقد اجتباك الله إذ ناداكا
أو كان إسماعيل جاء له الفدا ... من ربه فكما فداه فداكا
أو كان موسى للإله مناجياً ... فبليلة المعراج قد ناجاكا
أو كان عيسى نال قبلك رتبة ... فمراتب المجموع قد أعطاكا
قد نلت بالمعراج كل فضيلة ... ورأيت رحمن السما ورآكا
فعليك يا خير الأنام تحية ... تأتيك بالإقبال من مولاكا

فلما رجع من معراجه ومرقاه ، وقد أشرق الكون بنوره وسناه ، وتعطر الوجود بطيب نشره وشذاه ، تحدث بما أولاه مولاه من الفضل والجاه وخصه به من الشرف واصطفاه ، فصدقه الصديق وبشره وهناه ، ولم يشق فيما نقله ورواه ، واطلع عليه ورآه :

حبيب سرى وهنّا فيا طيب مسراه ... وقد فاحت الأكوان من طيب رياه
وخادمه جبريل عند ركابه ... على متن ظهر للبراق ترقاه
وصلى بجمع الأنبياء وكلهم ... لرتبته العلياء حنّ للقياه
فلما علا السبع الطباق تحفه ... ملائكة الرحمن والنور يغشاه
تجاوز حداً لا يحد لواصف ... ولا حاسب في عده قط أحصاه
وفارقه جبريل عند مقامه ... وقال له هذا الحبيب ومولاه
هناك تجلى للحبيب مشاهداً ... بلا كيف لكن حيث شاء تلقاه
فأدهشه ذاك الجمال فلم يطق ... جواباً فنودي بالسلام فحياه
وأدناه منه قاب قوسين إذ دنا ... وناداه يا خير الأنام أنا الله
منحتك فانظر هذه ليلة الرضا ... فهل لي كما ظن المشبه أشباه
فبلغ وقل إن كنت عني محدّثاً ... رأيت حبيباً ليس يعبد إلا هو
يجود على العاصي ويستر أهله ... ويعفو عن الذنب الذي ليس يرضاه
بجاهك يا خير الأنام تشفعوا ... فحط عن المحزون منهم خطاياه
عليك سلام الله يا خير مرسل ... سلام شريف في الحقيقة ترضاه

فسبحان من خص هذا الحبيب بخلع التشريف والتقريب ، وجعله قبلة للطاعة وكعبة للشفاعة من النار واللهيب ، ووعد من صلى عليه بإجابة دعائه وانشراح صدره الرحيب ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ ﴾ [البقرة : ١٨٦] اللهم بجاهه العظيم وبما كان بينك وبينه ليلة الخلوة والجلوة والتقريب والتكريم ، اغفر لنا كل ذنب عظيم ، وألبسنا ملابس القبول ، وبلغنا نهاية المسؤول وجميع المأمول ، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، برحمتك يا أرحم الرحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس الخامس والعشرون

في حكايات الصالحين وما فيها من الرقائق والاعتماد على الخالق

فمن ذلك ما قال محمد بن السماك الواعظ رحمه الله : وصف لي عابد فسرت إليه لأزوره فوجدته في بيت ، وقد حفر فيه قبره وهو جالس على شفيره يصلح حوضاً بين يديه فسلمت عليه فرد عليّ السلام ردّاً ضعيفاً ثم قال : من أنت ؟ فقلت : محمد بن السماك ، قال : الواعظ ! قلت : نعم فألقى الحوض من يده وقال : يا بْن السماك إن الوعظ من المستمع بمنزلة الطبيب من العليل فاعرض عليّ شيئاً من وعظك ، فقلت له : يا شيخ أما تخشى أن تكون خطيئتك لا تنسى وذنبك لا يمحى ، ثم كم بين يديك من شدة وأهوال وكربة وأنكال ، فأولها ظلمة القبر ، ثم ظلمة النشر ، ثم ظلمة الحشر ، ثم ظلمة الصراط . ثم وزن الأعمال ، ثم قطع الآمال ، ثم سطوة الملك المتعال . فبكى بكاء شديداً . وقال لي : يا بْن السماك وما بعد ذلك ؟ قلت : حمل الأوزار والورود إلى النار ، وأعظم من ذلك توبيخ الملك الجبار ، فصاح صيحة عظيمة ثم سقط في قبره فخرجت إليه عجوز كبيرة وجعلت تمسح التراب عن وجهه وتقول : بأبي وأمي هاتان العينان طالما سهرتا في طاعة الله ، وطالما بكتا من خشية الله ، ثم حركته فإذا به مات فخرجت من المنزل فإذا أنا بسري السقطي وإبراهيم بن أدهم والجنيد وجماعة من وجوه العباد فقالوا لي : مات أبو يزيد الخوّاص ؟ قلت : نعم فدللتهم على المنزل فدخلوا ليخرجوه من قبره يغسلوه ويكفنوه فوجدوه مغسلاً مكفناً مطيباً فصلى عليه المسلمون ، ثم رجعت إلى منزلي وقد صغرت عندي نفسي :

إلى كـــم ذا التراخـــي والتمـــادي وحـــادي المـــوت بـــالأرواح حـــادي
فلـــو كنـــا جمـــاداً لاتعظنـــا ولكنـــا أشـــدُّ مـــن الجمـــاد
تنادينـــا المنيـــة كـــلَّ وقـــتٍ ومـــا نَصـــغي إلى قـــول المنـــادي
وأنفـــاسَ النفـــوسِ إلى انتقـــاصٍ ولكـــنَّ الـــذنوبَ إلى ازديـــاد
إذا مـــا الـــزرع قارنـــه اصـــفرار فلـــيس دواؤه غـــير الحصـــاد
كأنـــك بالمشـــيب وقـــد تبـــدى وبـــالأخرى مناديهـــا ينـــادي
وقـــالوا قـــد قضـــى فـــأقروا عليـــه ســـلامكمو لي يـــوم التنـــاد

[قال عبد الله بن واسان رحمة الله تعالى عليه] : عبرت يوماً في أزقة البصرة فوجدت صبياً يبكي وينتحب فقلت له : يا ولدي ما الذي يبكيك ؟ فقال : خوفاً من النار ، فقلت : يا ولدي أنت صغير السن وتخاف من النار ، فقال : يا عمّ نظرت إلى أمي وهي توقد النار فرأيتها تقدم الحطب الصغار قبل الكبار . فقلت لها : يا أماه لم تقدمين الصغار قبل الكبار ؟ فقالت : يا ولدي ما تشعل الكبار إلا بالصغار فهذا الذي أبكاني وهيج لوعتي وأحزاني ، فقلت له : يا ولدي هل لك في صحبتي فتتعلم ما ينفعك ؟ فقال : على شرط إن قبلته فإني أصحبك وأتبعك . فقلت : وما هو ؟ قال : إن جعت تطعمني ، وإن عطشت تسقيني ، وإن زللت تغفر لي وإن مت تحييني . فقلت له : يا ولدي لا أقدر على ذلك كله ، فقال : يا عمّ دعني فإني على باب من يقدر على ذلك كله :

منـــك أرجـــو ولســـت أعـــرف ربـــاً أرتجـــي منـــه بعـــض مـــا منـــك أرجـــو
وإذا اشـــتدت الشـــدائد في الأر ض علـــى الخلـــق فاســـتغاثوا وضـــجوا
وابتليـــت العبـــاد بـــالخوف والجـــو ع فصـــروا علـــى الـــذنوب ولجـــوا
لم يكـــن لي ســـواك ربي مـــلاذ وتيقنـــت أنـــني بـــك أنجـــو

قيل : لما بلغ سفيان الثوري ﷺ من العمر خمس عشرة سنة قال لأمه : يا أماه هبيني لله تعالى ، فقالت : يا ولدي إنما يهدى للملوك من يصلح لهم ، وأنت ما فيك شيء يصلح لله فاستحيا ودخل بيتاً فأقام فيه خمس سنين متوجهاً إلى الله تعالى بالعبادة فدخلت عليه أمه بعد ذلك فوجدته مجتهداً في العبادة وعليه آثار السعادة فقبلت بين عينيه وقالت : يا ولدي الآن قد وهبتك لله فخرج عنها وغاب عشر سنين في سياحته متلذذاً بعبادته فاشتاق إلى أمه فزارها ليلاً فلما طرق الباب نادته من وراء الحجاب : يا سفيان من وهب لله شيئاً فلا يعود فيه وأنا قد وهبتك فلا أراك إلا بين يديه :

ولا تحســـبوا أني نســـيت ودادكـــم وإني وإن طـــال المـــدى لســـت أنســـاكم

حفظنا لكم عهداً قديماً وحرمة ونحن على العهد الذي قد عهدناكم
ونحن على ما تعهدون من الوفا يودكمو قلبي وبالغيب يرعاكم
ولست بناس عهدَكم بَعْدَ بُعْدِكُمْ وما دام قلبي عندكم كيفَ ينساكم

[قال منصور بن عمار رحمه الله] : تكلمت في بعض مدائن العراق بكلام يذوب منه الجماد وتنفطر منه الأكباد ، فلم يجر لأحد في مجلسي دمعة ولا كأن كلامي طرق سمعه ، فبينما أنا أحدو نياق القلوب وأسوق الأرواح إلى حضرة المحبوب إذا أنا بشابّ حسن الثياب قد قام من المجلس وصرخ ثم جلس وزعق فزلزل بصرخته أركان الأفكار وخلا في سره بجمال الغفار فنزلت عن منبري ثم امتهلت حتى أفاق من سكر غرامه وصحا من راح هيامه ، ثم تقدمت إليه وقلت له : سيدي إلى أين وصلت خيل طربك ، فقال : وصلت خيل طربي إلى بلوغ طلبي ، قلت : وبماذا اتصلت ؟ قال : براحتي بعد تعبي ، قلت : وعلى ماذا حصلت ؟ قال : على كنز مقصودي ومطلبي ، قلت : فهل مررت على حضرة القرب ؟ قال : نعم ومنها كان مشربي ، قلت : فهل شاهدت رجال الوقار ، وخلعت معهم العذار ، فقال : يا بْن عمار وهل خلع العذار إلا مذهبي ، قلت : فكيف تحيلت حتى إلى الدخول توصلت ، قال : وقفت بالباب ولزمت أدبي فنظر الساقي الباقي إلى فرط أشواقي فرحمني ولطف بي وفتح لي الباب ورفع لي الحجاب وناداني تملّ بمشاهدتي عند رفع الحجاب ، ثم أنشأ يقول :

إن كنت من أهل عصبة الطلب بادر إلى شرب خمرة الطرب
وقم إلى نحوها لعلك أن تحصل من صرفها على الأرب
راح على أربع العناصر قد سمت إلى أن علت على الرتب
رقت وراقت وروقت وصفت وقدّست نسبة عن العنب

[قيل] : إن أبا القاسم الجنيد رحمة الله عليه حج هو وجماعة من الفقراء الصوفية فانقطع عنهم الماء أياماً حتى أشرفوا على الهلاك وكانوا تحت جبل ، فقال لأحدهم : خذ هذه الركوة واصعد هذا الجبل فخذ لنا تراباً طيباً طاهراً حتى نتيمم به فقد حان وقت الصلاة فأخذ المريد الركوة وصعد إلى الجبل فجعل يأخذ التراب ويجعله في الركوة وإذا بصوت يناديه فالتفت فإذا هو راهب في دير يناديه : ما تصنع بهذا التراب ، فقال : نحن مسلمون محمديون إذا عدمنا الماء تيممنا بالتراب ، فقال : عندي بئر عذب شراب خذ منها واشرب وتوضأ فقال المريد : نحن جماعة تحت الجبل فقال : انزل إليهم واعرض عليهم فنزل إلى الجنيد فأعلمه بذلك فقال : اصعد إليه وقل نحن في سبعين مرقعة أتحملنا فصعد إليه وقال له ذلك فقال : أحملهم ولو كانوا

ألفاً إكراماً لمحمد وأمته فإني أحبهم فنزل المريد على الجنيد وأخبره بقول الراهب فصعد هو والجماعة وفتح لهم الراهب باب الدير فوجدوا بئراً منقورة وفيها ماء عذب طيب فاستقوا منها وشربوا وتوضؤوا وصلوا فلما فرغوا قدّم لهم الراهب صحفاً على عددهم فيها أنواع الطعام فأكلوا وقدّم لهم الطست والإبريق فغسلوا أيديهم وطيبهم بالماء والورد والمسك فلما استقروا سألهم هل فيكم من يقرأ شيئاً من القرآن على حسب الحال فأمر الجنيد بعض مريديه فاستفتح وقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] فصرخ الراهب وقال : اصطلحنا ورب الكعبة فلما أتم القارىء قراءته سألهم وأقسم عليهم هل فيكم من يحسن أن يقول شيئاً فإني أحب السماع فأشار الجنيد إلى بعض المريدين فأنشد :

أقام على الإبعاد حيناً من الدهر فعرفه كيف الطريق إلى العذر
وأشفق أن يبقى على حالة الجفا فيغرق في بحر الصدود ولا يدري
لأن جراحات الجناية بالوفا وإن برئت لا ينمحي موضع الأثر

فبكى الراهب طويلاً ثم قال زيادة فأنشد له ثانياً :

لبيك يا من في القديم دعاني وإليه باللطف الخفي هداني

فصرخ الراهب وقال : لبيك سيدي لبيك وها أنت قد دعوتني إليك وأنا أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله وقطع الزنار وخلع ما كان عليه فألبسه الجنيد دلقه وفرح بإسلامه هو والجماعة وخلاص عنقه من النار ثم أخرج لهم ألف دينار كان مذخورة عنده ثم ترك الدير وما فيه وساح على وجهه هائماً لا يدرون أين ذهب فلما وصلوا إلى مكة شرفها الله تعالى ودخلوا الحرم فطافوا واجتمعوا وإذا بشخص متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : سيدي بكشفك حجابك لي حتى شهدتك وباستدعائك لي حتى أجبتك فيا من عرفني به فعرفته هب لي من الحجيج من لا قبلته . فقال الجنيد لبعض مريديه : انظروا من القائل لهذا الكلام فمضى إليه فوجده الراهب فقال له : يا هذا اذهب إلى الجنيد وأقرئه عني السلام وقل له : إني لما فتحت لكم المقام وبذلت لكم الطعام ناداني الملك العلام إلى الإسلام وخلع عليّ خلعة الإكرام حتى لبست ثياب الإحرام ودخلت البلد الحرام ولي عنده حرمة وذمام ، فعاد المريد إلى الجنيد فأخبره بذلك فقام إليه وضمه وقبّل بين عينيه وقال له : حبيبي كيف رأيت لذة الوصول إليه فقال : يا سيدي لما هجرت الطلول وتبعت القفول هبت عليّ نسمات القبول ففتح لي مولاي باب الوصول فحصلت على المحصول وبلغت القصد والسول ثم صاح وسقط على الأرض فحركناه فإذا هو مات . هذه والله الجذبات الربانية ، وهذه أمارات الإخلاص في الوحدانية :

غلب الغرام عليه حتى إنه ساوى هواه ليله بنهاره
وسطا عليه السكر حتى قد غدا متهتكاً في الحب بعد وقاره
ولهان بين معنف ومؤفف فرحان من طرب بخلع عذاره
أضحى بخمرة حبه متمايلاً بخماره شوقاً إلى خماره
وكليم شوق كم له من زورة يرجو شفا أوزاره بمزاره
في طور طور القلب حاول نظرة فقضى الهوى بالعبد عن أوطاره
لا عار للمضطر أن يبدي الجوى ويبث ما يلقاه من أضراره

[قال بعض العارفين] : رأيت غلاماً قد افترش الرماد وهو يتمرغ عليه ويئنّ أنيناً شديداً فقلت لصاحبي : اعدل بنا إلى هذا العليل نعوده فقال : ليس هذا عليلاً ولكنه من المحبين يدعى بعبيد المجنون قال : فتقدمت إليه فإذا هو فتى وعليه جبة صوف بالية وهو يقول : سيدي عجباً لمن وصل إلى معرفتك وذاق حلاوة محبتك كيف ينقطع عن خدمتك ثم لم يزل يردد ذلك القول حتى غشي عليه فقلت لصاحبي : إنما المجنون والله من لم يصل إلى هذه المنزلة فلما أفاق من غشيته نظر إلينا وقال : ما بالكم تنظرون إليّ ؟ قلنا : لعل دواء يشفي من الداء الذي تجده : فقال : إن الذي ابتلى بالداء عنده الدواء ولكن يطلب الذي يتداوى أن يحتمي أوّلاً فقلت : بماذا ؟ قال : بترك الحرام وعدم التعرض للآثام ومراقبة الملك العلام والتهجد بالليل والناس نيام وأخذ القليل من البلغة والصبر على البلا في حال السخط والرضا والتعفف والقناعة عند وجدان الاستطاعة والاستعداد للموت وإعداد الجواب لمسألة منكر ونكير والوقوف بين يدي الملك الجليل القدير ثم إما إلى الجنة وإما إلى السعير ثم بكى حتى علا بكاؤه وبكينا معه ، وقلنا له : نحن أضيافك فادع لنا ، فقال : لست من خيل هذا الميدان ، فأقسمنا عليه فقال : جعل الله قراكم الجنة ، وجعل ذكر الموت مني ومنكم على بال ، قال : فانصرفنا عنه وقد عاشت قلوبنا من حسن لفظه وموعظته ، وارتاحت النفوس لعذب كلامه ومحبته .

[إخواني] هذه أحوال المجانين ، فأين عقلك أنت أيها الكئيب الحزين المسكين ؟

يا من بديع جماله الفتان يسبي عقول أعزة الفتيان
لولا وصالك لي لما علق الهوى بحشاشتي وثنى إليك عناني
لاحظتني نظراً تضمن جملتي فعجبت من داعيك حين دعاني
يا نظرة أهدت لسرّ سرائري شوقاً فلم ينظر إلى إنسان
فتراسلت أسرارنا وتجوهرت أرواحنا وسرت عن الجثمان

ما لي وللبرق الخفيّ يهيجني وجداً وإن سجع الحمام شجاني
لولاك ما هزّ الغرام معاطفي طرباً ولا أصبو إلى الألحان
أشتاقه لا عن مسافة بيننا لكن يحنّ إلى لقاه جناني
ما قلت آه تألماً من وجده لكن لفرط لذاذة الوجدان

[قيل] : جلس عبد الله بن مشرف وزير هارون الرشيد بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين لو استغاث بك رجل في ردّ عبد له هرب إليك أما كنت ترده إليه ؟ قال : بلى ، قال : فأنا عبد قد فررت إلى خدمة سيدي فاتركني له فقد أردت الرجوع إليه . فبكى الرشيد ومن حضره ، وقال : هذا رجل قد نجا من بيننا، ونحن جلوس ننظر إليه ، ثم خلى سبيله فخرج من وقته محرماً يقول : لبيك الله لبيك . فلقيه الثوري في بعض الطريق وهو نائم على الأرض والريح ترفع التراب على وجهه فسلم عليه وقال : يا عبد الله ما الذي عوضك الله عما تركت ؟ فقال : يا سفيان عوضني الرضا بما أنا فيه . فلما بلغ شيوخ الحرم قدومه خرجوا للسلام عليه ؛ فرأوا شعثه وجهده ، فقالوا له : كيف رأيت جهدك وصبرك على قطع المفاوز ؟ فقال : وكيف يأتي العبد المجرم إذا قاد نفسه إلى باب مولاه لو قدرت جئت أسعى على رأسي . ثم أخذ بالبكاء ، فقيل له : وما هذا البكاء ؟ فقال : شفيع قدمته لعله يقبل . فلما وقع بصره على البيت شهق شهقة ومات رحمه الله تعالى :

جنوني بكم حلم وغيي بكم رشد وحب الورى هزل وحبي لكم جد
رضيت بما ألقاه في السخط والرضا ولو كان سمًّا فهو من أجلكم شهد
وحقكمو ما سرني من سواكمو دنوّ ولا من غيركم ساءني بعد
وما سمحت بالصبر عنكم حشاشتي ولا بخلت بالدمع أجفاني الرمد
وإني لأهوى الشوق حتى كأنما على كبدي من حر نيرانكم وقد
وأستنشق الأرواح من نحو أرضكم وأسأل عنكم من يروح ومن يغدو
فحنوا وجودوا وارحموا وتعطفوا وكونوا كما شئتم فما منكمو بد

[قال محمد بن السماك رحمة الله عليه] : وصف لي عابد في بعض جبال الشام فسرت إليه وسلمت عليه فرد عليّ السلام وقال لي : يا بْن السماك من أوردك إلى هذا المكان ؟ قلت : سمعت بك فجئت بك أزورك ، فقال : غرك من أخبرك ، أنا أعرف بنفسي من غيري ، فالعاقل يا بْن السماك من يجتهد في الخلاص والفكاك قبل الهلاك . فلما سمعت كلامه بكيت ، فلما عزمت على الانصراف قلت : هل لك من حاجة ؟ قال : من جلس في هذا المكان لم يبق له حاجة إلى إنسان ، ثم قال : يا بْن السماك هل لك أنت من حاجة ؟ فقلت له : سألتك بالله

إلا ما أخبرتني ، ما الذي تحب من الدنيا والآخرة ؟ فبكى وقال : والله لولا أقسمت عليّ ما أخبرتك ، فأما الذي أحبه من الدنيا فقوة على الطاعة ، وزهد وقناعة ، ونفس بعيدة عن الهوى ، وقلب حشوه الخوف والجوى . وأما الذي أحبه من الآخرة فسماعي من سيدي : اذهب فقد غفرت لك . ثم تأوه ووقع على الأرض ميتاً فبهت من حاله وحرت في أمره وهممت بغسله وتجهيزه فسمعت هاتفاً من خلفي : يقول : يا بْن السماك هوّن عليك فليس أمره إليك ثم غيب عني فسمعت صب الماء عليه وأنا لا أنظر إليه وسمعت قائلاً يقول : هنيئاً لك أيها الوليّ المحبور بالأمن من الخوف يوم النشور :

لما رأيتك حاضرا ... في القلب زاد بي الخمار ... فبقيت فيك محيرا ... والقلب ليس له قرار
يا صاح هات مدامتي ... صرفاً فما عنها اصبطار ... لطفت فلما داقها الأحـ ... ـباب نحو الحب طاروا
بذلوا إليه نفوسهم ... كلا وما في الموت عار ... وإليه في بحر الهوى ... ركبوا وبالأرواح ساروا

طلبوه حقاً بالقلو ... ب فعندها نظروا وحاروا

[قال منصور بن عمار ﷺ] : ـ وكان واعظ العراق ـ بينا أنا في بعض الليالي نائم إذ رأيت باباً في السماء مفتوحاً وقد نزل منه ملك كثير الأنوار ، فقال لي : يا بْنَ عمار يسلم عليك الملك الجبار ، وخالق الليل والنهار ، ويقول لك : انصب غداً منبرك في الحان ، وتكلم بعزم وجنان ، فلنا في ذلك سرّ ونبأ ، ونشهدك من آياتنا عجباً . قال ابن عمار : فاستيقظت من منامي وأنا فزع ولا أجيب . وقلت : إن هذا لشيء عجيب . هذا أمر ما أظنه يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . كيف تورد الأحاديث الصحاح ، على غير أهل الصلاح ؟ وكيف يتلى القرآن بين الدنان والأقداح ؟ أم كيف تجلى عرائس الأذكار والآيات ؟ على أهل الخمور وفي الحانات ، فأعدت الوضوء وصليت ركعتين ، ثم نمت وإذا بالملك قد عاد وقال : يا منصور ما جئتك إلا بأمر الملك الغفور وهو يقول لك : قم وتكلم في الحان ، وعلينا الضمان . فاستيقظت من منامي وأنا من هذا الأمر أتعجب وأتفكر . وقلت : أريد حمال المنبر فإذا به قد حضر وطرق الباب ، قلت : من ؟ فقال : يا سيدي أنا حمال المنبر تريد أن أنصب لك المنبر في وسط الحان ؟ أم بين الدنان ؟ فقلت : ومن كشف لك عن هذا السرّ المصون ؟ فقال : الذي يقول للشيء كن فيكون . اعلم يا سيدي أن الملك الذي جاء إليك البارحة جاء إليّ بعدك وقلدني الأمانة ، وأمرني أن أنصب لك المنبر في الحانة ، قلت : حبيبي إن كان الأمر كما تقول فافعل ما أمرك به الرسول ، فلما أسفر الصباح ، ونشر عطره الفياح ، سارعت إلى امتثال الأوامر . فإذا شيوخ الحان قد عقدوا الدساكر فصعدت منبري بين جلاسي ، وأطرقت ساعة ثم رفعت رأسي وقلت : الحمد لله الذي جذب قلوب أحبابه ، إلى حضرة اقترابه ، وأدخلهم إلى حانة وصله وسقاهم

شراب عتابه ، وشغلهم به عمن سواه ، والمحب لا يشغل بغير أحبابه وتجلى عليهم فدهشوا عند مشاهدة جماله ورفع حجابه . فيا أيها السكارى بخمر الهوى لو دخلتم حانة الحب وعاينتم دنان القرب لرأيتم رجال الوقار في حضرة الملك الغفار ، وأقداح الأفراح عليهم تدار ، وكاسات المصافاة تغنيهم عن شراب العقار ، فأقداحهم أفراحهم وخمارهم أذكارهم ، وريحانهم قرآنهم ووردهم وردهم ، وشمعهم سمعهم ومزمارهم استغفارهم ، فإذا جنّ الليل وغابت الرقباء والأغيار ، تجلى عليهم الملك الجبار ، ورفع لهم الأستار ، فشاهدوا جمالاً لا تكفيه العقول ولا تمثله الأفكار ، فتأملوا يا أولي الألباب ، كم بين القشور واللباب ، واعلموا أن محرك أغصان القلوب ، الجامع بين يوسف ويعقوب ، ما أمرني بالجلوس في هذا المكان إلا وقد عفا عما كان من الذنوب والعصيان ، وجاد بالعفو والرضا ، وصفح عما مضى ، وسمع للجاني وقبل المطرود والعاني ، فالمحبوب قد حضر ، وبعين الرضا إليكم قد نظر ، وقد انتهت إليكم النوبة ، فهل فيكم من يعزم على التوبة ؟ فقد دارت كؤوس المصالحة ، وهبت نسائم المسامحة . قال ابن عمار : فما استكملت كلامي إلا وشاب قد وقف أمامي وهو سكران وفي يده قدح بالخمر ملآن وهو ثمل نشوان ، وقال : يا بْنَ عمار ترى الملك المتعال ؟ يقبلني وأنا على هذا الحال ؟ فقلت له : يا حبيبي كيف لا يقبلك بإفضاله وإسعاده ، وقد قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى : ٢٥] قال : فرمى القدح من يديه وخرج هائماً ، واستيقظ من غفلته بعد أن كان نائماً ، ثم قام إليّ شيخ مخمور وبيده طنبور ، وقال : يا بْنَ عمار هل يقبل الاعتذار ؟ لمن ضيع عمره في المعاصي والأوزار ؟ فقلت له : يا سيدي كيف لا يقبل الاعتذار ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ ﴾ [طه : ٨٢] فأبشر من التوبة بالنجاح ، فقد فتح باب السماح . فلما سمع كلامي رمى الطنبور وصاح ، وخرج على وجهه هائماً وساح . ثم قام إليّ غلام قد لعبت به المدام ، واستولى عليه الوجد والغرام ، وقال : يا منصور إن الملك الغفور ، قد أمرك أن تأخذ عليّ العهود ، فقد مضت دولة الصدود ، وأنجزت الوعود ! وآن أوان حصول المطلوب والمقصود ! فقلت له : يا غلام من أوصلك إلى هذا المقام ؟ فقال : أنا الذي خوطبت من أجله في المنام ! وأتاك الملك في شأنه من عند الملك العلام ! فقلت له : حبيبي ومن كشف لك عن هذا السرّ المستور ؟ فقال : الذي ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] ثم قال : يا منصور من هبت عليه نسمات الملاطفة لم يعجز عن حصول المكاشفة ! قلت : سيدي فمتى هبت عليك هذه النسائم ؟ قال : البارحة وأنت نائم ، ثم قال : يا بْن عمار أنت كنت السبب في دلالتي عليه وقربي لديه ؟ فهل لك من حاجة إليه ؟ قلت : سيدي فإلى أين عزمك ؟ فقال : يا منصور إلى حضرة الملك الغفور ! بين ندمان عليهم

كؤوس الأنس تدور بين ذاكر ومذكور ! وقد رفعت الحجب والستور ! فإن أحببت يا بْنَ عمار أن تراني فهناك غداً تلقاني ثم خطا في الهواء خطوات ، وقد نهى النفس عن الشهوات ، فغاب عن عياني ، فجعلت أرمقه بإنساني ؟ فسمعته يقول :

دعوني فالذي أهوى دعاني ... ونـاداني ومنه الوصل داني
وقال تريد ماذا قلت كأساً ... أهيم بسكرها طول الزمان
وأنظر نظرة يا نور عيني ... أراك بها على قرب التداني
فقد لبى عظيم الشوق مني ... ولم يخطر سواك على لساني
ومذ ناديتني للوصل جهراً ... أجبت وقد أتيت بلا تواني
وكنت على القبائح مستمراً ... كثير الذنب مضنى القلب عاني
فلاطفني حبيبي حين داوى ... فؤادي بالوصال وما جفاني
وكنت على شفا جرف المعاصي ... فداركني حبيبي واجتباني
وعرفني الطريق إليه جهراً ... فنلت القصد منه والأماني
فها أنا بعد ذلي في اعتزاز ... وعندي كل أسباب التهاني

المجلس السادس والعشرون

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله المتعزز بجلاله ، المتفرد بكماله ، المتوحد ببديع أفعاله ، الذي أودع جواهر حكمته في صناديق قلوب أهل معرفته ، وقفل عليهم بوثيق أقفاله ، دعاهم إلى حضرة قدسه ، وتولاهم بنفسه ، فخرج كل منهم عن أبناء جنسه وأشكاله ، قنعوا في المسير باليسير ، ونشطوا في الليل كما ينشط الأسير من عقاله ، قاموا في الدجى على أقدام التهجد بين يدي مولاهم ، فأصبحوا وقد أولاهم من فضله ونواله ، استعذبوا التعذيب في رضا الحبيب وصبروا على مرارة أهواله ، تجافوا عن الجفاء والغدر ، وداموا على استعمال الصبر وما كل أحد يقدر على استعماله ، جادوا في محبته بالأموال والأرواح فحصل لهم السرور والأفراح وما برح المحب يجود بروحه وماله ، سقاهم بكأس منادمته ، فأضحوا نشاوى من فرط محبته ، لا يعرف أحدهم يمينه من شماله ؛ فالعارف قد ترك لذة هجوعه ، والخائف قد تردى برداء ذله وخضوعه ، والمذنب قد بكى بفيض دموعه ، والهائم قد خرج عن ربوعه وأطلاله ، والمطرود

قد غص ببعده ، والعاصي قد احترق بنار وجده ، والواجد قد خرج عن حده ، ونادى بلسان حاله :

يا من سقى قلبي شراب وصاله ... وأباحه نظراً لحسن جماله
عودته منك الجميل فأجره ... كرماً على عادات حسن مثاله
حاشاك تنعمه رضاك وقد أتى ... متنصلاً من عظم قبح فعاله
لا تبتليه بالبعاد وبالجفا ... يا سيدي أنت العليم بحاله
يا أيها العاصي المسيء إلى متى ... تعصي الإله وتغتذي بنواله
قم في الدياجي طالباً لأمانه ... واخضع وذل لعزه وجلاله
واضرع إليه وناده بتذلل ... يا من يجود على الكئيب الواله
يا من إذا سأل المقصر عفوه ... فهو المجيب بفضله لسؤاله
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا ... وتشفعي بمحمد وبآله
المصطفى المختار أكرم شافع ... فيمن يرجيه ليوم مآله
صلى عليه الله ما جنّ الدجى ... وبدا الصباح بنور حسن جماله

[إخواني] أين الذين ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] أين الذين قيل في حقهم : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أين الذين ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] أين من بات وهو لربه ساجد وراكع ؟ أين الذي سبقت لهم العناية بالتوفيق والهداية . قال عبد الواحد بن زيد رحمة الله عليه : خرجنا جماعة من الفقراء نريد سفراً في البحر فعصفت الريح بنا فطرحتنا على جزيرة في البحر فرأينا فيها رجلاً يعبد صنماً من دون الله تعالى ، فقلنا له : أيّ شيء تعبد ؟ فأومأ بأصبعه إلى الصنم ، فقلنا له : يا مسكين إن معنا في السفينة من يحسن صنع مثل هذا ، وإنه ليس بإله يعبد . قال : فأنتم من تعبدون ؟ قلنا : نعبد الله ، قال : وما الله ؟ قلنا : الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الأحياء والأموات قضاؤه ، فقال : فكيف علمتم ذلك ؟ قلنا : أرسل إلينا رسولاً أخبرنا بذلك ، قال : فما فعل الرسول ؟ قلنا : لما أدى رسالة الملك قبضه إليه ، قال : فما ترك عندك علامة من الملك ؟ قلنا : بلى ترك عندنا كتاب الملك ، قال : أروني كتاب الملك ، فإن كتب الملوك تكون حساناً . قال : فأتيناه بالمصحف ، فقال : لا أحسن أقرأ هذا فقرأنا عليه سورة فما زال يسمع ويبكي إلى أن ختمنا السورة ، فقال : ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى فأسلم وحملناه وعلمناه شرائع الإسلام وشيئاً من القرآن . فلما أقبل الليل صلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا للنوم ، فقال : يا

قوم الإلـه الذي دللتموني عليه ينام ؟ قلنا : لا يا عبد الله هو حيّ قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، فقال : فبئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام ، فأعجبنا كلامه ، فلما وصلنا إلى عبادان وأردنا أن نفترق جمعنا له دراهم وقلنا له : أنفق عليك هذه فنظر إلينا مغضباً . وقال : لا إلـه إلا الله دللتموني على الطريق ولم تسلكوها ، أنا كنت في جزيرة في البحر أعبد صنماً من دونه فلم يضيعني فكيف الآن وقد عرفته ثم تركنا ومضى . قال عبد الواحد : فلما كان بعد أيام أتاني آت فأخبرني عنه أنه بأرض كذا وهو يعالج سكرات الموت فجئته ، وقلت له : ألك حاجة ؟ قال : قد قضى حوائجي من عرفتني به ، فبينما أنا أكلمه إذ غلبتني عيناي فنمت فرأيت في المنام روضة وفي الروضة قبة وفيها سرير وعليه جارية أجمل من الشمس والقمر وجهاً وهي تقول : سألتك بالله إلا ما عجلت عليّ به فانتبهت فإذا به قد مات فجهزته ودفنته في قبره فلما نمت رأيته في المنام في القبة التي رأيتها أولاً والجارية إلى جانبه وهو يتلو قول تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣ ـ ٢٤] .

صب قضى في الهوى العذري مشتاقاً ... ولم يخن لأهيل الحي ميثاقا
ومات وجداً بهم من بعد ما عطفوا ... عليه حين غدا بالذنب منعاقا
له الهنا وله البشرى غداة غد ... ينسى بطيب التلاقي كل ما لاقى
ويشهد الحسن في كل الوجود بدا ... والحجب قد رفعت والوقت قد راقا
وخمرة الأنس دارت والمدير لها ... أعارها منه أنوارا وإشراقا
كم نوّرت بصراكم جوهرت فكرا ... كم أيقظت في ظلام الليل أحداقا
وقد تجلى لأهل الحب فافتتنوا ... وأصبحوا كلهم للحسن عشاقا

[إخواني] لا تزدروا حلل الفقر فإن عليها أنوار المهابة ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : ٦] « رب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » .

[قال محمد بن المنكدر] رحمة الله عليه : كان لي سارية في مسجد رسول الله ﷺ أجلس إليها بالليل فقحط أهل المدنية سنة فخرجوا يستسقون فلم يسقوا ، فلما كان الليل صليت العشاء في المسجد ثم جئت فاستندت إلى السارية فجاء رجل أسود تعلوه صفرة متزر بكساء فتقدّم إلى السارية وأنا خلفه ولم يشعر بي فصلى ركعتين ثم جلس ، فقال : يا رب خرج أهل حرم نبيك ﷺ يستسقون فلم تسقهم وأنا أقسم عليك بجاه محمد ﷺ وآله أن تسقيهم . قال ابن المنكدر : فما وضع يده حتى سمعت الرعد ثم جادت السماء بالمطر حتى أهمني الرجوع إلى أهلي ، فلما أحس بالمطر حمد الله وأثنى عليه بمحامد لم أسمع بمثلها ثم قام فلم يزل يصلي حتى قرب الفجر

فأوتر وصلى ركعتين ثم أقيمت الصلاة فصلى الناس وصلى معهم ، فلما سلم الإمام خرج مسرعاً فركضت خلفه حتى انتهى إلى باب المسجد فجعل يرفع كساءه ويخوض في الماء فحيل بيني وبينه فلم أدر أين ذهب فبقيت متأسفاً عليه متشوقاً إليه :

نهاري وليلي دائم الحزن والبكا ... على جيرة في ذي المنازل قد كانوا
لقد رحلوا عني وإني لبعدهم ... كئيب حزين واله القلب حيران
نأوا فبقلبي حرقة لفراقهم ... وفيه من الوجد المبرح نيران
فوا حسرتي ولى الزمان ولم أفز ... برؤية أحباب عن العين قد بانوا
نسيم الصبا بلغ سلامي إليهم ... فقد مضى منهمُ صدودٌ وهجرانُ
وإن لم أطق صبراً عليهم فليس لي ... سوى من له حلم وعفو وغفران
يفرج أحزاني ويغفر زلتي ... ففي القلب من فقد الأحبة أحزان

[**إخواني**] ما كل مسافر حاج ، ولا كل بيت مكة ، ولا كل زاد يبلغ ، ولا كل جبل عرفات ، ولا كل واقف واقف .

[قال ذو النون المصري] : حججت سنة إلى بيت الله الحرام ، فلما وقفت بعرفة رأيت شاباً عليه آثار الاصفرار والنحول والقلق والذبول ، فعلمت أن عنده من المحبة محصول فسمعته يقول : سيدي كيف ألبيك بلسان عصاك أو قلب جفاك ، سيدي ما أجمل هذه الساعة إذ أنت تناجيني وفي هذا الموقف تناديني . قال ذو النون : فتقدمت إليه ، فلما رآني قال : مرحباً يا ذا النون فقلت له : ومن أين تعرفني ؟ فقال : عرفني بك من عرفني وأخبرني بك من آنسني ، ثم قال : يا ذا النون حبه تيمني وهجره أنحلني فمتى أظفر بقربه ويجود لي الحبيب برفع حجبه ؟ قلت : من أين جئت ؟ قال : من بلد القلب أقصد حضرة الرب ، قلت : فبم تزودت ؟ قال بقطرة من شراب أنسه أرجو أن أصل بها إلى حضرة قدسه ، قلت : فهل كانت لك مطية ؟ قال : نعم صفو النية والانقطاع عن الدنيا بالكلية والتنزه في مقامات حضرته السنية ، ثم قال : إليك بنسكه وتقدّم بملكه وأنا ما أملك غير هذه النفس العانية الغافلة الساهية وإني أقربها إليك بالذلة والمسكنة بين يديك ، فإن تكرّمت بقبولها فجد بوصولها وأسرع في تعجيلها فأنت دليلها إلى سبيلها ثم صاح وتأوّه وسقط إلى الأرض ميتاً فسمعت قائلاً يقول : يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى . قال ذو النون : فوقفت عند رأسه أتفكر فيه ، إذا بعجوز قد أقبلت وألقت نفسها عليه ثم أجرت الدموع أسفاً وأظهرت حزناً ولهفاً ثم قالت : هنيئاً يا من كان دأبه النسك والوفا ، وما غفل عن خدمة سيده ولا هفا ، وطالما قام في الليل برداء الطاعة ملتحفاً يمسي كئيباً ويصبح

مدنفاً . قال ذو النون : فقلت لها : من يكون لك هذا الشاب ؟ قالت : هو ولدي سائح في الفلوات أجتمع أنا وهو كل سنة في الموسم والميقات ، فلا أعود أراه إلى العام المقبل ، فلما وقفت في هذه الساعة بعرفات طلبته على سالف العادات فهتف بي هاتف أنه قد مات ، وقد رفعت روحه إلى أعلى الدرجات ، ثم قالت : يا سيدي بما بيني وبينك في خلوتي وبما أودعت من محبتك في مهجتي إلا ما خلصت نفسي العانية من هذه الدار الفانية وأوصلتني مع ولدي إلى الدار الباقية . قال ذو النون :ثم تنهدت وخرت ميتة إلى جانب ولدها ، رحمهما الله تعالى :

فاز المحبون بالمحبوب واتصلوا ... ولم يخب منهمو في قصدهم أمل
وافوا ومحبوبهم وفى أجورهم ... وأقبلوا وهمو والله قد قُبِلوا
ومِنْ رضاه عليه أُلبسوا خلعاً ... بديعةَ الحسن فيها يُضرب المثل
يا جيرتي وأصيحابي بخيف منى ... متى تعود لنا أيامنا الأول
ما كان أحسن ذاك الشمل مجتمعاً ... والوصل متصل والهجر منفصل
والوقت صاف وساقي القوم سامرهم ... لما تجلى على أسرارهم ذهلوا
ناداهمو قد بلغتم كل قصدكم ... فاليوم لا صدّ تخشوه ولا ملل
ها قد خلعت عليكم من خزائن ما ... دخرته خلعاً ينأى بها الوجل
فاستبشروا بنعيم لا نفاد له ... على الدوام وجناتي لكم نزل
هم الأحبة أدناهم لأنهمو ... عن خدمة الصمد القيوم ما غفلوا
باعوا النفوس بجنات فبايعهم ... لما اشترى منهمو في حبهم قتلوا
عند المهيمن أحياء وقد رزقوا ... طيب الجنان على لذاتها حصلوا
وجاوروا المصطفى الهادي الذي رغبوا ... في حبه وله أرواحهم بذلوا
سعوا إلى بابه راجي شفاعته ... يوم المعاد إذا كل الورى ذهلوا
داعي التشوّق ناداهم وأقلقهم ... فكيف يهدوا ونار الشوق تشتعل
وشقة البيد تطوى في السرى لهمو ... وكل قاص دنا حتى به اتصلوا
يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... يوم الحساب إذا ضاقت بنا السبل
صلى عليك إلّه العرش ما هتفت ... ورق الحمام وما سارت لك الإبل

[**حكاية**] : كان إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه صاحب خراسان ، فبينما هو ذات يوم راكب على جواده في معرك جلاده بين عسكره وأجناده ، إذ سمع من قربوس سرجه منادياً ينادي : يا إبراهيم ما لهذا خلقت عبادي ولا بهذا أمرت أهل ودادي ، فاترك مرادك لمرادي

وإلا فأنت من أهل عنادي ، قال إبراهيم : فأصابني السهم في مقتل فؤداي فتغربت عن بلادي وتشتت عن أولادي وخرجت هائماً إلى من عليه توكلي واعتمادي :

أهـــيم بحـــبكم في كـــل وادي وأســـأل عنكمـــوا في كـــل نـــادي
وأنـــدب كلمـــا عاينـــت ربعـــاً حـــدا لهمـــو بوشـــك الـــبين حـــادي

فلما انفصل إبراهيم ملكه ومماليكه واتصل بخالقه ومالكه دخل البادية وأشجانه عليه بادية وانقطع في الطريق عن الرفيق وبقي سبعة أيام لا يتناول شربة من الماء ولا لقمة من الطعام ، فغار الشيطان على صدقه والشيطان غيور ، وإنما يغار من الأكابر ملوك الحقيقة وسلاطين الطريقة وحق له أن يغار لأنهم ألبسوا خلعته التي انخلع منها وولايته التي انعزل عنها فظهر له الشيطان في هيئة شيخ صالح ، وقال له : يا إبراهيم اسمع مني فإني لك ناصح : إن الحبيب الذي تركت من أجله الممالك وركبت في محبته المهالك قد ضيعك حتى أشرفت على الموت ، فقال : لا بأس بالموت إذا حصل الأمان من الفوت :

يا لائمي لو بـذلت الـروح مجتهـدا وجملـة المـال والـدنيا ومـا فيهـا وجنة الخلد والفردوس أجمعهـا
بساعة الوصل كان القلب شـاريها لا تسلكن طريقاً لست تعرفهـا بـلا دليـل فتـهوي في مهاويهـا

فـــالروح أوّل موجـــود تجـــود بـــه والـــنفس أيســـر شـــيء فيـــه تفنيهـــا
ومـــا عليـــك إذا ماتـــت بغصـــتها مـــن الغـــرام فـــإن الوصـــل يحييهـــا

فبينما إبراهيم في دهشة حيرته إذ ظهر له شخص من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً ، وقال له : يا إبراهيم تريد أن أعلمك الاسم الأعظم فتسقى به وتطعم ، فقال : نعم فعلمه إياه فقال له : من أنت ؟ قال : أنا أخوك الخضر تريد أن أصحبك ؟ قال : لا ، قال : ولم ؟ قال : لأن الصحبة لا تحصل إلا بالشركة وأنا لا أريد أن أشرك في مصحوبي ولا أصحب غير محبوبي ، فإني أخاف أن أصحب غيره وهو شديد الغيرة فلا حاجة لي في ذلك :

هـــاكم فـــؤادي فـــإن أبقيتمـــو أثـــراً لغيركـــم فـــاجعلوا التعـــذيب مـــأواه
وهـــا لســـاني فـــإن أنبـــاكمو خـــبراً عن غيركم صـححوا بالكـذب دعـواه
فمـن تكـن أنـت دون النـاس بغيتـه فـــامنن عليـــه ولـــو يومـــاً بلقيـــاه
فأنـــت للصـــب أقصـــى مـــا يؤملـــه وأنـــت للقلـــب أحلـــى مـــا تمنـــاه

وكان إبراهيم لما انفصل عن أهله فارق زوجته وهي حامل فولدت له ولداً سموه أدهم باسم جده فلما كبر وترعرع قال لأمه : يا أماه ! أما كان لي أب ، قالت : بلى ، والله يا بني كان لك أب وأيّ أب ، فقال : أين ذهب ؟ قالت : يا بني ذهب في طلب ربه. فقال : يا أماه دعيني

أذهب وأطلب ما طلب أبي : لعلي أفوز بأربي .

فقالت : بالله عليك يا ولدي إن أباك قد أحرق قلبي فلا تحرق أنت قلبي بفراقك فمكث رعاية لأمه حتى ماتت فبقي حزيناً لا أم له ولا أب ، فخرج حافياً وعن الناس خافياً يبيت بالمساجد المهجورة ويسأل اللقمة من الأبواب إلى أن وصل إلى مكة شرفها الله تعالى ، فبينما إبراهيم في الطواف ومعه بعض مريديه : إذ نظر الشيخ إلى الشاب وجعل يحدقّ بالنظر إليه ، فأنكر المريد عليه ، وقال له : يا سيدي ما هذه الغفلة في هذا المكان والوقت تحدق بالنظر إلى صورة مستحسنة ، فبكى الشيخ . وقال للمريد : اذهب إليه وسله من هو ؟ فذهب المريد إليه وسلم عليه وقال له : من أنت أيها الشاب ؟ فقال : من بلاد العجم من بلخ ، فقال : ابن من ؟ فقال : لا أدري إلا أن أمي قالت لي إن اسمه إبراهيم بن أدهم ، ثم تناثرت دموعه على خده . قال المريد : فرجعت إلى إبراهيم فوجدته قد بكى حتى غشي عليه فجلست عند رأسه حتى أفاق . فقلت له : يا شيخ الله يأخذ حق هذا الشاب منك ، فقال : هذا والله ولدي تركته لله تعالى فلا أعود فيه ، فقلت له : أيها الشيخ سألتك بالله إلا ما قمت إليه فقام إليه ، فقال له الصبي : من أنت ؟ فقال : أنا أبوك إبراهيم بن أدهم ، ثم ضمه إلى صدره وقال : إلـهي هذا ولدي وقطعة من كبدي وقد جاء في طلبي ، وقد علمت موضعه في قلبي وأن لا أتفرغ له وأنت أعلم بمصالح عبادك ، فما مضت على الشاب سبعة أيام حتى قضى نحبه فغسله إبراهيم بيده وكفنه في قطعة كساء غليظ ، كلما غطى رأسه بانت رجلاه ، وكلما غطى رجليه بان رأسه وهو يقول : قرة عيني بالله يجمع بيني وبينك يوم القيامة :

إن كنت لا أبالي من فقدت ولا ... أرجو سواك ولا ألوي على أحد
ولو سفكت دمي عمداً بلا سبب ... يا برد ذاك الذي ترضى على كبدي
أهل الهوى كلهم في الحب قد وردوا ... لكنه ليس ورد الظبي كالأسد
كم وارد ملئت كأس الوصال له ... وواقف دون ذاك الورد لم يرد
وقد مددت يدي بالذل خاضعة ... وقد عجزت فيا مولاي خذ بيدي
وقد تشفعت بالهادي الشفيع ومن ... ترجى شفاعته في اليوم ثم غد
محمد المجتبى المختار من مضر ... ومن جلا كل قلب بالذنوب صدي
صلى عليه إلـه العرش خالقه ... وزاده منحاً جلت عن العدد

المجلس السابع والعشرون

فيما يجلو القلوب من القسوة : بذكر أخبار النسوة

الحمد لله الذي أنشأ العالم واخترعه وابتدعه ، وأتقن كل شيء صنعه وأحكم مفترقه ومجتمعه . [أحمده] على ما أولى من إحسانه حمد معترف بالتقصير عن شكر امتنانه [وأشهد] أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له الملك المنان ، وأشهد أن محمداً عبده وسوله بعثه بالبيان مرشداً يهدي الحيران مؤيداً بمعجزة القرآن فأظهر دينه على سائر الأديان ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة في كل وقت وأوان . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ [الفتح : ٢٥] وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] فقرن الله سبحانه ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين . وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما في الرجال ، وفي النساء من لهنّ الأوراد والسياحات والكشف وغير ذلك من الخصوصيات التي خصهن الله تعالى بها كمن مضين منهنّ في الصدر الأول مثل رابعة العدوية وشعوانة وريحانة وأمّ الخير وغيرهنّ من النساء المشهورات وغير المشهورات ؛ كما حكي عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى : أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم قالت : إلـهي غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ثم تقبل على صلاتها ، فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : إلـهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها عليّ فأعزى ، فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني ، وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك ثم أنشدت :

يـا سـروري ومنـيتي وعمـادي ... وأنيســي وعــدتي ومــرادي ... أنت روح الفؤاد أنـت رجـائي
أنـت لي مـؤنس وشـوقك زادي ... أنت لـولاك يـا حيـاتي وأنسـي ... مـا تشـتت في فسـيح الـبلاد
كم بدت منـة وكـم لـك عنـدي ... مــن عطــاء ونعمــة وأيــادي ... حبــك الآن بغــيتي ونعيمــي
وجـلاء لعـين قلـبي الصـادي ... ليس لي عنك مـا حييـت بـراح ... أنــت مــني ممكــن في السـواد

إن تكــن راضــياً علــيّ فــإني ... يـا مـنى القلـب قـد بـدا إسـعادي

[وقال سعد بن عثمان] : كنت مع ذي النون المصري رحمه الله في تيه بني إسرائيل وإذا بشخص قد أقبل ، فقلت : يا أستاذ شخص قد أتى ، فقال لي : انظر من هو ؟ فإنه لا يضع أحد قدمه في هذا المكان إلا صدّيق فنظرت فإذا هي امرأة ، فقال : صديقة ورب الكعبة فابتدر إليها وسلم عليها فقالت : ما للرجال ومخاطبة النساء ؟ فقال : أنا أخوك ذو النون ولست من أهل التهم ، فقالت : مرحباً حياك الله بالسلام ، فقال لها : ما حملك على الدخول في هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] . فقال لها : صفي لي المحبة ؟ فقالت : سبحان الله أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة وتسألني عنها ، فقال لها : للسائل حق الجواب ، فأنشدت تقول :

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فذكر شغلت به عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

[وآخر] :

يا حبيب القلب ما لي سواكا ... فارحم اليوم مذنباً قد أتاكا
يا رجائي وراحتي وسروري ... قد أبى القلب أن يحب سواكا

[وقيل] : إنه لما مات زوج رابعة العدوية استأذن الحسن البصري في الدخول عليها هو وأصحابه فأذنت لهم وأرخت ستراً وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه : إنه قد مات بعلك ولا بدّ لك من زوج وقد انقضت عدتك فاختاري من هؤلاء الزهاد من شئت منهم ، فقالت : حباً وكرامة من هو أعلمكم حتى أزوجه نفسي ؟ قالوا : الحسن البصري ، فقالت له : إن أجبتني عن أربع مسائل فأنا لك أهل ، فقال لها : سلي فأنا أجيب إن وفقني الله تعالى قالت : ما يقول الفقيه العالم إذا أنا متّ هل خرجت من الدنيا منسلمة أم كافرة ؟ فقال : هذا غيب والغيب لا يعلمه إلى الله تعالى ، قالت : فما يقول إن وضعت في القبر وسألني منكر ونكير أفأقدر على جوابهما أم لا ؟ قال : وهذا أيضاً غيب ، قالت : فإذا حشر الناس في القيامة وتطايرت الكتب فيعطى بعضهم كتابه بيمينه ويعطى بعضهم كتابه بشماله أفأعطى كتابي بيميني أم بشمالي ؟ قال : وهذا أيضاً غيب ، قالت : فإذا نودي في الخلائق فريق في الجنة وفريق في السعير فمن أيّ الفريقين أكون ؟ فقالها لها : وهذا أيضاً غيب ولا يعلم الغيب إلى الله عزّ وجل ، فقالت له : فإذا كان الأمر كذلك وأنا في قلق وكرب من هذه الأربعة فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ،

ثم أنشدت :

راحتي يا إخوتي في خلوتي وحبيبي دائماً في حضرتي لم أجد لي عن هواه عوضًا
وهواه في البرايا محنتي حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي إليه قبلتي
إن أمت وجداً وما ثم رضا واعنائي في الورى واشقوتي يا طبيب القلب يا كل المنى
جد بوصل منك يشفي مهجتي يا سروري وحياتي دائماً نشأتي منك وأيضاً نشوتي

قد هجرت الخلق جمعاً أرتجي منك وصلاً فهو أقصى منيتي

[قال صالح المرّي رحمة الله عليه] : رأيت جارية وهي تغني بالطار فمرّت يوماً بقارىء يقرأ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٤٩] قال : فرمت الطار من يدها وصرخت ثم سقطت إلى الأرض مغشياً عليها ، فلما أفاقت كسرت الطار وأخذت في العبادة والاجتهاد حتى شاع ذكرها . قال صالح : فدخلت عليها يوماً فكلمتها في الرفق بنفسها فبكت وقالت : ليت شعري أهل النار من قبورهم كيف يخرجون وعلى الصراط كيف يعبرون ، ومن أهوال يوم القيامة كيف يخلصون ، وللحميم كيف يتجرعون ، ولتوبيخ المولى كيف يسمعون ؟ ثم سقطت إلى الأرض مغشياً عليها ، فلما أفاقت قالت : مولاي وسيدي عصيتك وأنا غضة رطبة وأطعتك وأنا يابسة خشنة أتراك تقبلني ؟ ثم قالت : أوّاه كم من فضيحة تكشفها القيامة غداً ، ثم صرخت وبكت فلم يبق أحد في المجلس حتى غشي عليه من شدّة البكاء مما صنعت بنفسها ، ثم أنشدت تقول :

أما والذي قد قدّر البعد بيننا وعذبني بالشوق وهو شديد
وخصكمو بالصبر دوني وخصني بحزن عليكم يبتدي ويعيد
وصيري مهما شممت نسيمكم أشدّ لقلبي راحتي وأميد
لقد ذاب قلبي من دموعي عليكمو على أنه في النائبات جليد
فيا ليت شعري هل على ما لقيته وكابدت من جور الفراق مزيد
لئن عاد ذاك الوصل أو عاد بعضه وملتم إليه إنني لسعيد
على أنها الأقدار قد تبعد الفتى قريباً وقد تدنيه وهو بعيد

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : كانت أم داب من كبار الصالحات العابدات إلى أن بلغ عمرها تسعين سنة وهي تحج في كل سنة على قدميها من المدينة إلى مكة فكفّ بصرها ، فلما حضر وقت الحج دخل عليها النساء يزرنها ويتغممن لها في كف بصرها فبكت ثم رفعت رأسها في إلى السماء وقالت : إلـهي وعزتك لئن فقدت نور بصري بين يديك ما فقدت أنوار شوقي إليك ثم أحرمت وقالت : لبيك اللهم لبيك وخرجت مع صواحباتها فكانت تمشي بين

أيديهن فتسبقهن في المسير . قال ذو النون : فتعجبت من حالها فهتف بي هاتف : يا ذا النون أتعجب من ضعيفة اشتاقت إلى بيت مولاها فحملها إليه بلطفه وقوّاها :

همو قدحوا الغرام بلا زناد ... فطار الشوق من شغف الفؤاد
إذا لم تطفئوا نيران شوقي ... بوصل صار قلبي كالرماد
عذولي لا تضع في العذل وقتي ... فلست بقاطع حبل الوداد
ويا حادي النياق لأرض نجد ... إذا ما جزت في تلك البوادي
فقل للحب بالجرعاء عني ... مقالة مغرم الأحشاء صاد
أيا راحي وريحاني وروحي ... أتسهرني وتسلبني رقادي
ظلام الليل أحسن من ضياء ... إذا نظر المحب بلا انتقاد
يقوم به المحب إلى حبيب ... عظيم العفو منسكب الأيادي
وسار العارفون إلى رضاه ... فنوقهم البكا والشوق حادي
وقد جعلوا الحنين له حداء ... وذكرهم الأحبة خير زاد
فتسمع صوتهم والعيس تسري ... بهم نحو الذي فيه رشادي
أجلّ الخلق أنسابًا وأعلى ... وأعظم حرمة يوم التنادي
هو الهادي البشير هو المرجى ... شفيع الخلق في يوم المعاد
عليه من المهيمن كل وقت ... صلاة ما حدا بالركب حادي

[قال محمد بن مروان] وكان من أهل الفقر والورع : كنت عند الركن اليماني بالكعبة شرّفها الله تعالى وقد خف الطواف وإذا بأربع جوار قد أقبلن وعليهنّ سيما القبول فتعلقت الكبرى منهنّ بالأستار ، وقالت بلسان الذلة والانكسار :

إليك حجي لا للبيت والحجر ... ولا طواف بأركان ولا جدر

ثم رفعت رأسها وقالت : إلـهي الشوق أقلقني إليك ، والحبّ هيمني وجداً عليك ، وها أنا بين يديك ، إلـهي إن كانت زلتي تطردني ، فمحبتي إلى بابك تجذبني ، وإن كان ذنبي عن بابك يبعدني فرجائي في عفوك يقربني وإن كانت خطاياي تقيدني ، فإخلاصي في متابي إليك يطلقني ، إلـهي فمتى إليك أصل ، وإلى حضرة جمالك أتصل ، يا أنيس المستوحشين ، ويا حبيب المحبين ، ويا أمان الخائفين ، ويا راحم المذنبين ، ويا قابل التائبين ، ويا أرحم الراحمين ارحمني برحمتك ، واشملني بمغفرتك ، ثم تنهدت وأنشدت :

أستغفر الله مما كان من زللي ... ومن ذنوبي وتفريطي وإصراري

يا رب هب لي ذنوبي يا كريم فقد أمسكت حبل الرجا يا خير غفار

ثم جلست وهي كئيبة عانية ، فقالت الثانية فتململت وتقلقلت وبكت ومادت ونادت : يا منتهى الآمال ، يا حامل الأبرار على نجب الأعمال ، يا مسرج قناديل الودّ في قلوب العارفين ، يا أنيس المستوحشين ، يا طبيب القلوب ، يا غافر الذنوب ، قد ذاب جسمي من اشتياقي إليك ، وقد استحييت من إقدامي عليك فارحمني ، واعف عني يا أرحم الراحمين ، ثم جالت وقالت :

أتيتك أشتكي سقمي ودائي وعندك يا منى قلبي دوائي
فلا أحد سواك إليه أشكو فيرحم عَبْرتي ويرى بكائي
فيا مولى الورى جد لي بعفو ومُنَّ بنظرة فيها شفائي

ثم جلست وهي من وجدها عائثة ، فقامت الثالثة فبكت طويلاً وأبدت عويلاً ثم قالت : إلـهي ذنوبي طردتني عن بابك ، ودوام الغفلة أبعدني عن جنابك ، وقد وقفت ببابك بالذلة والافتقار ، ورجوت العفو عن ذنوبي والأوزار ، وقد هربت منك إليك وها أنا بين يديك ثم تنهدت وأنشدت :

ببابك ربي قد أنخت ركائبي وما لي من أرجوه يا خير واهب
سواك فجد لي بالذي أنت أهله لأعطى من الأفضال أسنى المواهب
إذا لم أمت شوقاً إليك وحسرة عليك فلا بلغت منك مآربي

ثم جلست وعيونها بالبكاء دامعة ، فقامت الرابعة فبكت وتحسرت واستقالت من ذنوبها وقالت : إلـهي أمرت المجتهدين بالوقوف على بابك وما أظن أني منهم ، إلـهي لولا أن العفو من صفاتك لما ابتليت بالذنوب أهل ولاياتك ، إلـهي إن كنت غير مستأهلة لما أرجوه من مغفرتك ، فأنت أهل أن تجود عليّ بسعة رحمتك ، يا من لا تخفى عليه خافية ، ويا من نعمه لم تزل وافية ، استر عليّ ما خفي من ذنوبي ، فأنت غاية مقصدي ومطلوبي ثم أنشدت :

تعطفت بفضل منك يا مالك الورى فأنت ملاذي سيدي ومعيني
لئن أبعدتني عن جنابك زلتي فإن رجائي فيك حسن يقيني
وظني جميل أنني منك أرتجي عواطفك الحسنى فخذ بيميني

قال محمد بن مروان : فلقد أطربتني بما أسمعنني وأبكين أعيني بما وعظنني .

[قيل] : كانت امرأة مجاورة بمكة شرفها الله تعالى يقال لها : « حكيمة » وكانت إذا نظرت إلى باب الكعبة يفتح صرخت صرخة عظيمة وأغمي عليها ففتحت الكعبة يوماً في غيبتها ، فلما جاءت قيل لها : يا حكيمة فتح اليوم بيت ربك ، فلو رأيت الطائفين به يطوفون وهم محرمون

ملبون ، والباب مفتوح ، وكل منهم قلبه من الشوق مجروح ، ومن الوجد مقروح ، وهم ينتظرون من ربهم الرحمة والمغفرة ، ويبكون بالذلة والمعذرة ، لكانت تقرّ عينك ، فصرخت صرخة أزعجت بها القلوب ، ولم تزل تضطرب حتى ماتت أسفاً على ما فاتها من بلوغ المطلوب ورؤية الكعبة التي شرفها الله تعالى من بين الملأ ، ولم يجعل لها في الدنيا عوضاً ولا بدلاً :

يا كعبة الحسن كم من عاشق قتلا ... شوقاً إليك وعنك لم يرم بدلا
يمسي ويصبح محزوناً ومكتئباً ... ويهجر الأهل والأوطان والطلا
لولاك ما سارت الركبان من طرب ... كلا ولا قطعت سهلاً ولا جبلا
ولا رأت كل ضيق فيك متسعاً ... كلا ولا خف عنها كل ما ثقلا
باعوا النفوس رخيصاً في هواك وما ... تغلو النفوس بوصل منك إن حصلا

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : بلغني أن بالجبل المقطم جارية متعبدة ، فأحببت أن أزورها فخرجت إلى الجبل أطلبها فلم أجدها ، فلقيت جماعة من المتعبدين فسألتهم عنها ، فقالوا : أتسأل عن المجانين ؟ وتترك العقلاء ؟ فقلت : دلوني عليها وإن كانت مجنونة ؟ فقالوا : نراها تجوز بنا تقع مرة وتقوم مرة وتصيح مرة وتسكت مرة وتبكي مرة وتضحك مرة ، فقلت : دلوني عليها فقال أحدهم : تراها في الوادي الفلاني ، فخرجت في طلبها ، فلما أشرفت عليها سمعت لها صوتاً ضعيفاً وهي تقول :

يا ذا الذي أنس الفؤاد بذكره ... أنت الذي ما إن سواه أريد ... يا منيتي دون الأنام وبغيتي
يا من له كل الأنام عبيد ... تفنى الليالي والزمان بأسره ... وهواك غض في الفؤاد جديد

قال ذو النون : فأتبعت الصوت ، فإذا أنا بالجارية ؛ وهي جالسة على صخرة عظيمة ، فسلمت عليها فردت عليّ السلام وقالت : يا ذا النون ما لك والمجانين ، فقلت لها : أمجنونة أنت ؟ فقالت : لو لم أكن مجنونة لما نودي عليّ بالجنون ، قلت : وما الذي جننت به ؟ قالت : يا ذا النون حبه خبلني ووجده أقلقني وشوقه تيمني ، فقلت : وأين محل الشوق منك ؟ فقالت : يا ذا النون الحب في القلب والشوق في الفؤاد والوجد في السرّ ، ثم بكت بكاءً شديداً حتى غشي عليها ، فلما أفاقت قالت : أوّاه من فرط المحبة ، يا ذا النون هكذا موت المحبين ، ثم صاحت صيحة عظيمة وسقطت إلى الأرض فحركتها فإذا هي ميتة رحمة الله عليها :

يا حبيب القلوب ما لي سواكا ارحم اليوم مذنباً قد أتاكا أنت سؤلي ومنيتي وسروري
قد أبى القلب أن يحب سواكا يا رجائي وغايتي واعتمادي طال شوقي متى يكون لقاكا
ليس قصدي من الجنان نعيما غير أني أريدها لأراكا يا حبيب القلوب جد لي بعفو
وأنلني يا نور عيني رضاكا أنا أهواك ما حييت وإن متـ ـت فبعدي يا فوز من يهواكا
ليس لي عنك ما حييت براح وفؤادي على المدى يرعاكا كل من في حماك يهواكا لكن
أنا وحدي كل من في حماكا جئت يا منيتي إليك ومالي غير ذلي إليك لا سواكا
فبذلي ولوعتي وانكساري وافتقاري وفاقتي لغناكا هب لي الفوز واعف عني لأني
في البرايا أصبحت من أسراكا ليس لي قربة إليك من الخلـ ـق سوى المصطفى الذي ناجاكا

أحمد المرتضى شفيع البرايا سيد الكون خير من ناداكا
فعليه الصلاة في كل وقت كلما حرك النسيم الأراكا

[عن جعفر الخادي رحمة الله عليه] قال : سمعت الجنيد رضي الله عنه يقول : حججت سنة من السنين على الوحدة وجاورت بمكة شرفها الله تعالى فكنت إذا جنّ الليل دخلت الطواف فبينا أنا أطوف إذا بجارية تطوف البيت وهي تقول :

أبى الحب أن يخفى وكم قد كتمته فأصبح عند قد أناخ وطنبا
إذا اشتدّ شوقي هام قلبي بذكره وإن رمت قرباً من حبيبي تقربا
ويمنحني وصلاً فأحيا به له ويسكرني حتى ألذّ وأطربا

[قال الجنيد] فقلت لها : يا جارية أما تتقين الله تتكلمين بمثل هذا الكلام في مثل هذا المقام فالتفتت إليّ وقالت : يا جنيد لا تدخل بينه وبين محبيه . ثم أنشدت تقول :

لولا التقى لم ترني هجرت طيب الوسن إن الهوى شرّدني
كما ترى عن وطني قد همت من حبي له فحبه هيمني

ثم قالت : يا جنيد أنت تطوف بالبيت ، فهل ترى رب البيت ؟ فقلت : هذه دعوى تحتاج إلى إقامة حجة فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : سبحانك سبحانك ، ما أعظم شأنك ، وما أعزّ سلطانك ، خلق كالأحجار يطوفون بالإنكار على أهل الأسرار ، ثم أنشدت :

يطوفون بالبيت العتيق تقرّباً إليك وهم أقسى قلوباً من الصخر
فلو يخلصون السرّ جادت صفاتهم وقامت صفات الحق منهم على الذكر

قال الجنيد : فأغمي علي من كلامها ، فلما أفقت طلبتها فلم أجدها :

يـا ذا الـذي آنسـني في الفـؤاد وحـرّم النـوم وطيـب الرقـاد أنـت الـذي أسـهرتني دائمـا
وقد حلا لي فيك طيب السـهاد يا ذا الذي قد لامني في الهـوى ما تتقـي الهجـر وطـول البعـاد
إن كنـت تبغـي قربـه فاجتهـد ولـذ بجـاه المصـطفى في المعـاد طـه شـفيع الخلـق يـوم اللقـا
إذا أتوا في الكـرب يـوم التنـاد صـلى عليـه الله مـا أورقـت أغصان أشـجار ومـا سـار بـاد

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : وصف لي عابدة من الزهاد ، ذات عمل واجتهاد ، فقصدتها فإذا هي صائمة النهار قائمة الليل لا تفتر عن العبادة ، ولا تملّ من العمل ، وهي مقيمة في دير خرب ، فلما جن الليل ، سمعتها تقول : سيدي لا ينام ، ولا ينبغي له المنام ، فكيف الجارية تنام ؟ والمخدوم لا ينام ؟ لا وعزّتك وجلالك ليس لي في هذه الليلة منام . فلما أصبحت سلمت عليها فردّت عليّ السلام ، فقلت لها : يا جارية تسكنين في مساكن النصارى وأنت على هذه الحالة ؟ فقلت : يا ذا النون لا تتكلم بمثل هذا الكلام السقيم ، وأنت على هذا القدم العظيم ، فلا يخطر غير الله في بالك ، ولا تتوهم غيره في خيالك ، فقلت لها : أما تستوحشين في هذا الدير ؟ فقالت : والذي ملأ قلبي من لطيف حكمته ، وهيمني في محبته ، ما علمت في قلبي موضعاً لغيره ، ولا في جسدي عرقاً إلا وهو ملآن بمعرفته ؟ فكيف لا أستأنس بذكره ؟ وأنا دائماً في حضرته ، فقلت لها : قد أرشدتني إلى الطريق فاسلكي بي مسالك القوم ، فإني والله في بحر ذنوبي غريق ، فقالت : يا ذا النون اجعل التقوى زادك ، والآخرة مرادك ، والزهد والورع مطيتك ، والانقطاع إلى الله تعالى سجيتك ، وارم هذه الدنيا عن قلبك ، فهو سبب الرجوع إلى ربك ، واسلك طريق الخائفين ، واترك طريق المذنبين تكتب في ديوان الموحدين ، وتلق الله تعالى وليس بينك وبينه حجاب ، ولا يردك عنه بوّاب . قال ذو النون : فأثر كلامها في قلبي ، وكان سبب رجوعي إلى ربي ، ثم تركتني وهي تسوح ، وتقول في سياحتها :

هو الحبيب الذي بالوصل قـد وعـدا وحقـه لا سـلته مهجـتي أبـدا
كـرر علـى مسـمعي ذكـراه تطـربني روحي الفداء لمن باسـم الحبيـب حـدا
هـو الحبيـب فـلا شـيء يماثلـه تـالله مـا مثلـه للقلـب حـين بـدا
إن مـتّ في حبـه شـوقاً فـلا عجـب يـا حبـذا إن أكـن مـن جملـة السـعدا
يـا مـن يـروم وصـالاً منـه يغنمـه اهجر منامك ما وصل الحبيـب سـدى
وانظر لأهل التقى في الليل قد وقفوا في طاعـة الله كـلّ ربـه عبـدا
هـذي صـفاتهمو نـالوا الـذي طلبـوا وكـل راج لمـا يبغيـه قـد وجـدا

المجلس الثامن والعشرون

في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨]

الحمد لله الذي لا تدركه الأوهام ولا الظنون ولا تحويه الأبصار ولا العيون ، ولا تناله الآفات ولا المنون ، الذي أنزل الكتاب المكنون ، وأرسل السحاب الهتون ، وأخرج رطب الثمار من يابس الغصون ، وخلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧] تكوّنت بقدرته الأشياء ، وتوالت برحمته الآلاء ، وانشقت بحكمته الأرض والسماء ، وكتب بمشيئته السعادة والشقاء ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢١] الشافي صدور أولي الألباب ، النافي بإتقان مصنوعاته كل شك وارتياب ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] أنشأ بحكمته أصناف المبتدعات ، وقدر الأشياء من ماض وآت ، وغفر بالمتاب سائر الخطيئات ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى : ٢٥] مبدع الدهور بالأحداث ، ومصوّر الذكور والإناث ، وباعث من في القبور فينهضون بالانبعاث ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : ٥١] ـــ و ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٦] وأنزل من المعصرات ماء ثجاجاً . ولو شاء لجعله أجاجاً فلولا تشكرون . الكريم الشكور الرحيم الغفور المنزه في أقضيته عن أن يظلم أو يجور ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] مالك الأشياء بالطول والأرض ، وقبل من عباده السنن والفرض ، وإليه المآب والعرض ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم : ٢٦] أتقن خلق الإنسان وأبدع ، وركب فيه قوى حركاته وأودع ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٨] أوضح سبيل الرشاد وبين مسالكه ، وأسبغ على العباد نعمه المتداركة ، ونوّر وجوه الموحدين فهي مسفرة ضاحكة ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] أرسل من المعصرات الماء إلى الأرض وأنزل ، أسبغ بفضله الآلاء وخوّل ، وقضى على خلقه بما شاء وأجزل ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا

يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] أتقن صنعة خلق العالم وأحكم ، وجاد عليهم بفائض رزقه وأنعم ، ويدرك منهم السرّ المكنون المبهم ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [النحل : ٢٣] ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن : ١٧] ومنور الكون بالنورين ، ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : ٤٩] حجب أرباب العقول عن تحديده فتاهوا ، وبصرهم بتوحيده فلم يشاققوا ولم يضاهوا ، وألهمهم ذكر تمجيده فنطقوا بذكره وفاهوا ، الله لا إلّه إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون أفاض على أوليائه من جزيل نعمائه فضلاً ونوالاً ، وأعدّ لأعدائه من عذابه وبالاً ونكالاً ، وحجبهم عن إدراكه فلا يتوهمون له شبيهاً ولا مثالاً ﴿ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ولا لنشر فضله طيّ ، ولا يعتري المهتدي إلى سبيله غيّ ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : ١٩] .

فنون المحبة فيها فنون ولكن لقوم بها يعرفون
ففيها رموز لأهل الهوى وفيها صفات الجمال المصون
تعلم فيها رجال الوفا علوم الصفا فبها يعملون
وعرّفهم كيف طعم الهوى وطرق الهدى فيه يعرفون
وفيها إشارات سرّ الغرام وسرّ الغرام لديه فنون
عجيب لمن لامني فيهمو يهون باللوم ما لا يهون
ويقطع بالتعب أوقاته ويطلب في الكون ما لا يكون
فسبحان من لا له في الورى شريك وكل الورى يشهدون

أحمده حمداً يتقرّب به المتقرّبون ، وأشهد أن لا إلّه إلا وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها يوم لا ينفع مال ولا بنون ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي العربي الأمين المأمون ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون . قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] النافخ إسرافيل والصور قرن ، وقيل : جمع صورة على قراءة الحسن لأنه قرأ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ بفتح الواو . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : صاحب الصور لم يطرف ، أي لم يطبق على جفن منذ وكل به ينظر تجاه العرش يخاف أن يؤمر قبل أن يلتقي جفناه وهذه هي النفخة الأولى ، ومعنى ﴿ فَصَعِقَ ﴾ ماتوا من الفزع وشدة الصوت ، وقوله : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ قيل : هم الشهداء ، وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل

وعزرائيل ، وقيل : حملة العرش ، وقيل : الملائكة ، وقيل : هم الحور العين . ثم نفخ فيه أخرى يريد نفخة البعث ، وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إن الأجساد تنبت كنبات البقل فتخرج الأرواح كأمثال النحل فتدخل الخياشيم فتدب كدبيب السمّ في اللديغ فإذا هم قيام ينظرون إلى أهوال ما كانوا يوعدون » .

[إخواني] رحل الأحباب إلى القبور وسترحلون ، وتركوا الأموال والأوطان وستتركون ، وتجرعوا كأس الفراق وستتجرعون ، وقدموا على ما قدموا وستقدمون ، وندموا على التفريط في الأعمال وستندمون . وتأسفوا على أيام الإهمال وستتأسفون ، وشاهدوا ما لهم عند المنون وستشهدون ، ووقفوا ببصائرهم على الأهوال وستقفون ، وسئلوا عما علموا وستسألون ، ويودّ أحدهم لو يُفتدى بالمال وستودون . فبادروا للمتاب قبل يوم الحساب وخيبة الظنون ، فكأنكم بأيام الشباب قد أبلتها يد المنون ، وقد أظلكم من فجأة الموت ما كنتم توعدون ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] فكيف بك يا بن آدم إذا نفخ في الصور ، وبعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور وضاقت الأمور ، وظهر المستور ، وخرج الخلائق من القبور ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ يا له من يوم عظم فيه الزلزال وسيرت الجبال وترادفت الأهوال وانقطعت الأمال . وقلّ الاحتيال وخسر أصحاب الشمال ، وخرجوا من القبور بنفخة الصور يرجفون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ يوم تزل فيه الأقدام وتتبلد فيه الأفهام ويطول القيام وتظهر الآثام وينقطع الكلام ويخرجون من اللحود أحياء بعد شرب كأس المنون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فهو يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة ، يوم الزلزلة والطامة ، يوم يشاهد العاصي ذنوبه وآثامه ، يوم يخرجون من الأجداث بالانبعاث إلى ما يوعدون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٩] وتكشف الضمائر وتظهر الجوائر وتعمى البصائر ، ويبهت الحائر ، يفتضح أهل الكبائر يبعثر ما في القبور فيخرج المؤمن والكافر والبرّ والفاجر إلى الموقف يهرعون ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ كان محمد بن السماك كثير البكاء فسئل عن ذلك فقال : آية في القرآن أبكتني ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] كيف لا تذوق العيون من البكاء ألمها ؟ وهي لا تدري ما يختم لها ؟

[**إخواني**] سار المتقون ورجعنا ، ووصلوا وانقطعنا ، وأصابوا وامتنعنا ، ونجوا من الإشراك ووقعنا ، تعالوا ننظر في آثارهم وندرس أخبارهم ونبكي على ما نابنا ، ونندب على ما لحقنا وأصابنا :

تـذكرت أيـامي ومـا كـان في الصـبا ... من الذنب والعصيان والجهل والجفا
وكيف قطعت العمر سهواً وغفلة ... فأسكبت دمعي حسرة وتلهفا
وناديت من لا يعلم السرّ غيره ... ومن وعد الغفران من كان قد جفا
وعاد إليه من كبار ذنوبه ... فجاد عليه بالجميل تعطفا
أغثني إلهي واعف عني فإنني ... أتيت كئيباً نادماً متلهفا
وخذ بيدي من ظلمة الذنب سيدي ... وجد لي بما أرجوه منك تلطفا

[**إخواني**] زرع أعمالكم قد دنا للحصاد ، وزاد أيامكم قد آذن بالنفاد ، ويوم غفلتكم قد أطال الرقاد ، فستندمون يوم يفرّ الوالد من الأولاد . وتختلف الأمور ونفخ في الصور فأين الحسرات على فوات أمس ؟ أين العبرات على مقاساة ظلمة الرمس ؟ أين ما أعددتموه ليوم لا تجزى فيه نفس عن نفس ؟ ستذهل إذا خشعت الأصوات فلا تسمع إلا الهمس ، وتعلق الصحائف في النحور وتغلي النيران في الصدور ونفخ في الصور . قال الفضيل بن عياض ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] قال : تلقى الوالدة ولدها يوم القيامة فتقول له : يا بنيّ ألم يكن بطني لك وعاء ؟ ألم يكن ثديي لك سقاء ؟ فيقول : بلى يا أماه ، فتقول : قد أثقلتني ذنوبي فتحمل عني منها ذنباً واحداً ؟ فيقول : إليك عني فأنا مشغول بنفسي عنك وعن غيرك :

أنا مشغول بذنبي ... عن ذنوب العالمينا ... وخطايا أثقلتني ... تركت قلبي حزينا
ولقد كنت جليلا ... في عيون الناظرينا ... صرت في ظلمة قبري ... ثاوياً فيها رهينا
بعد عز وسرور ... فوق وصف الواصفينا ... فأتى الموت علينا ... بعد هذا ففنينا
وعلمنا ففهمنا ... ما لنا الآن نسينا ... أنّ حياً ليس يبقى ... غير رب العالمينا
والذي صح لدينا ... وعلمناه يقينا ... كل حي سوف يفنى ... غير محيي الميتينا

[**إخواني**] قلوبنا بالغفلة رحلت عن الأجساد ، إخواني إلى متى أتحدث وليس في الحيّ إلا الخيام ، إخواني أما تنظرون إلى ما فعلت بنا الزلات والآثام ، إخواني قيدنا التقصير وقد دنا الحمام . فأوّاه علينا من هول يوم النشور ، ونفخ في الصور ، بالله يا إخواني إلى متى تؤخرون المتاب ، هذا المشيب أتى وقد تولى الشباب ، متى تصالح مولاك متى تقف بالباب ؟ أما اعتبرت بالراحلين من الأحباب والأتراب ، وما حدث بعد ذلك من الأمور ، ونفخ في الصور ، قيل : إنه إذا رجع الشاب إلى سيده وتاب تبشر الملائكة بعضهم بعضاً يقولون : ماذا وقع ؟ فيقال لهم : شاب استيقظ من نوم غفلته ورجع إلى الله بتوبته فينادي مناد : زينوا فراديسكم لقدوم توبته ، وفي الحديث : « إن الشاب إذا بكى من ذنوبه واعترف بعيوبه عند سيده ومحبوبه » . وقال :

إلهي أنا أسأت فيقول الله تعالى : وأنا سترت ، فيقول : إلهي وأنا ندمت ، فيقول الله تعالى : وأنا علمت ، فيقول : إلهي رجعت ، فيقول الله تعالى : قبلت ، أيها الشاب إذا تبت ، ثم نقضت فلا تستحي أن ترجع إلينا ثانياً وإذا نقضت ثانياً فلا يمنعك الحياء أنْ تأتينا ثالثاً ، وإذا نقضت ثالثاً ، فارجع إلينا رابعاً فأنا الجواد الذي لا أبخل ، وأنا الحليم الذي لا أعجل ، وأنا الذي أستر على العاصي وأقبل التائبين ، وأعفو عن الخاطئين ، وأرحم النادمين وأنا أرحم الراحمين . من ذا الذي أتى إلى بابنا فرددناه ؟ ومن ذا الذي لجأ إلى جنابنا فطردناه من ذا الذي تاب إلينا وما قبلناه ؟ من ذا الذي طلب منا وما أعطيناه ؟ من ذا الذي استقال من ذنبه فما غفرناه ؟ أنا الذي أغفر الذنوب ، وأستر العيوب ، وأغيث المكروب ، وأرحم الباكي الندوب ، وأنا علام الغيوب ، يا عبدي قف على بابي أكتبك من أحبابي ، تمتع في الأسحار بخطابي أجعلك من طلابي ، لذ بحضرة جنابي أسقك من لذيذ شرابي ، اهجر الأغيار ، والزم الافتقار ، وناد في الأسحار ، بلسان الذلة والانكسار ، وقل إن كنت من المحبين أهل الاشتياق والاشتهار :

يا من فؤادي عنه لا يسلو وخاطري منه فما يخلو قد انقضى عمري بلا موعد
يعلل القلب ولا وصل انظر إلى حالي بعين الرضا فالعيش بالهجران لا يحلو
واسمح على قدرك يا سيدي حوشيت أن ينقصك الفضل كل عذاب فيك مستعذب
وكل صعب هين سهل لي بك عن كل الورى شاغل يا فوز من أنت له شغل

[**إخواني**] جزاء الأعمال بالميزان عسير ، والوقوف بين يدي المولى بظلمة المعاصي خطير ، فإلى متى في المطال والعمر قصير ، لا تدري هول ما أنت إليه تصير ، وستندم إذا بعثر ما في القبور ، ونفخ في الصور وحصل ما في الصدور :

ما احتيالي وأمر ربي عصيت حين تبدي صحائفي ما جنيت ما احتيالي إذا وقفت ذليلاً
قد نهاني وما رآني انتهيت يا غنياً عن العباد جميعًا وعليماً بكل ما قد سعيت

ليس لي حجة ولا لي عذر فاعف عن زلتي وما قد أتيت

كيف حالك يا أخي إذا بلغت القلوب الحناجر ، وقطعت الحسرات الأكباد قطع الخناجر ، واشتد عطش المفرطين من شدّة الهواجر ؟ فيا أيها العاصي بادر إلى باب مولاك وهاجر ، وأدرك مواسم الأرباح قبل أن تمور ، ونفخ في الصور :

سمعت حمامة هتفت بليل وقد حنت إلى إلف بعيد فأزعجت القلوب وأقلقتها
وما زلنا نقول لها أعيدي أرى ماء وبي عطش شديد ولكن لا سبيل إلى الورود

فرد من ماء موعظة ورداً لتلق الأمن للقلب الشريد
ولازم خدمة المولى عسى أن تنال الفوز من رب مجيد

واهاً على قلوب أقسى من الحديد ، واهاً على نفوس عن طريق الرشاد تحيد ، واهاً عن عيون أجمد من أصلاب الجلاميد سيشرب أهل الشهوات شراباً من صديد وتبرز أعمالهم بسوء أفعالهم فيذهلون ﴿ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

[إخواني] كم خذل التفريط من البطالين ، وكم أقعدت البطالة قلوب الغافلين وكم أعمت الآمال بصائر الآملين . وكم قطعت الأسباب قلوب الخائفين وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴿ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أما لكم عيون من ألم الفراق تسمع ، أما لكم قلوب من وحشة الانقطاع تخشع ، أما لكم أسماع تصغي إلى المواعظ فتسمع ، أما لكم أكباد من طلب الفاني تشبع تالله ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ : [النحل : ٩٣] ﴿ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

[قيل] : إن بعض المريدين حصلت له فترة فرجع إلى ما كان عليه ثم إنه ندم وقال : ترى لو رجعت عن ذنبي كيف حالي مع ربي ؟ فسمع النداء : يا فتى عصيتنا فسترناك وتركتنا فأمهلناك فإن عدت قبلناك وإن كنت ما ترانا فنحن نبصرك ونراك ، عصيتنا في الملا جهراً وغطيناك وكم تباعدت عنا ثم قرّبناك بارزتنا بالخطايا ثم سامحناك ولو رجعت إلينا وطلبت الصلح صالحناك .

وكان علي بن الموفق يقول في مناجاته : سيدي وعزتك لا أبرح عن بابك ولو طردتني ولا أزول عن جنابك ولو أبعدتني ولا أحول عن وصلك ولو قطعتني ولا أسلو من محبتك ولو عذبتني سيدي وإن كنت محجوباً عن ناظري فأنت في قلبي وخاطري وإن كنت مقاطعي ومهجاري فحبك مكنون في سري وضمائري :

إن حجبوا شخصك عن ناظري ... ما حجبوا ذكرك عن خاطري
قد زارني طيفك في مضجعي ... يا حبذا طيفك من زائر
واصلتني أفديك من واصل ... هجرتني أفديك من هاجر
أصبحت ما بين الهوى والنوى ... في موقف ما لي من ناصر
فظاهري ينبيك عن باطني ... وباطني ينبيك عن ظاهري

غيره :

قولوا لمن غيب عن ناظري ... حبك في قلبي وفي خاطري
يا مالك الروح ترفق بها ... قد منع الصبر عن الصابر
تريد أن تقتلني عامداً ... لا بدّ للمظلوم من ناصر
بحرمة الودّ الذي بيننا ... لا تفسد الأوّل بالآخر

[إخواني] مدّوا أيدي الذلّ والافتقار ، وأسيلوا من عيونكم دمعها المدرار ، ونادوا برفيع الأصوات بالسرّ والإجهار : عبيدك أهل المعاصي والإصرار أتوك يرجون عفوك عن الذنوب والأوزار وقد عثرنا فأقل عثرتنا من النار ، إلـهنا شفيعنا إليك الذل والانكسار والندم والرجوع والدموع الغزار ، إلـهنا إن كانت ذنوبنا قد أخافتنا من عقابك فإن حسن الظن قد أطمعنا في ثوابك فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلـهي إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين فمن للمقصرين وإن كنت لا تقبل إلا المخلصين فمن للمخلطين وإن كنت لا تكرم إلا المحسنين فمن للمسيئين ، إلـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشدّ مصيبتي أنبه غيري وأنا النائم ، سيدي ما أبلغ قصتي أدلّ غيري أنا الجائر ، إلـهي جد بالعفو عن مذكر متكلف وسامع متخلف : إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أتراك تقبل المدلول وتردّ الدليل ، إلهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس التاسع والعشرون

في بعض مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي نزه أبصار بصائر أوليائه في ملكوته ، وأراهم من آياته عجباً ، وأسرى بأرواحهم إلى محل قربه وجعلهم من الأتقياء والنجباء ، وشرّفهم بأن جعلهم عبيده فجعل لهم شرفاً ونسباً ، وأقامهم على الأقدام في جنح الظلام ، وقد مدّ عليهم من ستوره غيهباً ، وأطلعهم على أسرار ما كتبتها أقلام ولا أودعت كتباً ، وقذف في قلوبهم أنواراً يشاهدون بها الملكوت فيرون ما كان بعيداً مقترباً ، ومنّ عليهم بالكشف والإطلاع فيرون ما كان محتجباً ، وكساهم جمالاً ومهابة وسمة وأدباً ، وجذب أعنة قلوبهم إلى جنابه والسعيد من كان له منجذباً ، ونعمهم بطيب خطابه الذي فرّج هموماً وأذهب كرباً ، وأرواحهم لما تعبوا في خدمته فما وجدوا لذلك تعباً ، ونادمهم في خلوة السحر فقطعوا بالسهر وقتاً طيباً ، وناداهم في سرائرهم ببشائرهم أهلاً وسهلاً ومرحباً ، وسقاهم من ألذ مشروب ، وتجلى عليهم المحبوب وأراهم جمالاً للقلوب قد سبى ، فهو حبيب القوم وجليسهم ونديمهم وأنيسهم ، وقد رفع لهم عنده

رتباً ، فإذا غابوا كانوا في الحضرة قرباً ، وإذا حضروا حدّثوا عجباً ، فبهم ينزل الغيث يعشب من الأرض ما لم يكن معشباً ويخضب منها ما كان مجدباً ، وبهم يستجاب الدعاء ويكشف البلاء وهم أهل الاجتباء ، تركوا الدنيا لأجل محبوبهم فتساوى عندهم أن يروا حجراً وذهباً . رضوا به بدلاً من كل شيء فقالوا قصداً وبلغوا أرباً ، فإذا أقبل الليل تمسكوا بأذياله وأخذوا منهم حسباً وتملوا بمنادمة حبيبهم عندما غابت الرشاة ونامت الرقبا . وإذا هجم الصباح أعلنوا بالصياح وأجروا دمعاً منسكباً . وقالوا : يا ليت الليل ما ذهب وليته أقام وليت المشرق عاد مغرباً :

أيا ليل لا تنفد إلى الحشر دائما ... ومّد على رغم العواذل غيهبا ... ويا صبح لا تهجم علينا بسرعة
وبالله لا تسفر وكن متأدبا ... فمحبوبنا في آخر الليل زارنا ... وقد بشرتنا باللقا نسمة الصبا
ولما سرى ذلك النسيم معطرا ... حسبناه بالمسك العبيق تطيبا ... وداخلنا سكر عجيب ونشوة
تخبر أن العشق من زمن الصبا ... فيا صاحياً من خمرة الحب خاليا ... من الوجد ما ذاق الغرام ولا صبا
تنح ودع عنك الهوى وحديثه ... فإن رمت سلوانا تروح مخيبا ... بروحي من طاوعت فيه صبابتي
وخالفت فيه عاذلي شاء أو أبى ... وقلت هو المحبوب ديني ومذهبي ... ويا حبذا إلى مذهب صار مذهبا

[قال بعض الصالحين] : كنت في البادية فتقدمت القافلة فرأيت قدّامي شخصاً فسارعت حتى أدركته ، فإذا هي امرأة بيدها عكاز وهي تمشي الهوينى فظننت أنها أعطبت فأدخلت يدي في جيبي ، فأخرجت لها عشرين درهماً وقلت : خذيها وامكثي حتى تلحقك القافلة فتكتري بها ثم ائتيني الليلة حتى أصلح أمرك ، فقالت بيدها في الهواء هكذا ، فإذا هي في كفها دنانير من الغيب وقالت : أنت أخذت الدراهم من الجيب وأنا أخذت الدنانير من الغيب ثم أنشدت تقول :

كم نعمة لك في الأنام ومنة ... موجودة في ذاتها لا تعدم
كم آية لك في الخلائق والنهى ... مشهودة أسرارها لا تفهم
كم حالة حولتها وتحولت ... فينا بنا عما نريد نترجم
ولدى كلامك تستوي أقوالنا ... ففصيحنا في بعض قولك أبكم
ونقول حقاً أنك الحق الذي ... حجب الجميع فعلمه لا يعلم

فسبحان من اختص من خلقه عباداً جعل لهم أرض الهدى مهاداً ومنحهم توفيقاً ورشاداً وزادهم في طريقهم زاداً ، نصب لهم شباك الملاطفة فأوقعهم في طريقهم وأدار عليهم كؤوس المعاطفة فصرعهم فقلوبهم في محبته واجلة وأبدانهم من خوف هجره ناحلة فهم في بساتين وصله يرتعون وفي روضات أنسه يتمتعون ومن أهوال يوم القيامة آمنون ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ : [يونس ٦٢] .

[قيل] : دخل لص على رابعة العدوية ليلاً فنظر في البيت يميناً وشمالاً فلم يجد غير إبريق فلما همّ بالخروج قالت له : يا هذا إن كنت من الشطار فلا تخرج بلا شيء فقال : إني لم أجد شيئاً ، فقالت له : يا مسكين توضأ بهذا الإبريق وادخل إلى هذا المخدع وصلّ ركعتين فإنك لا تخرج إلى بشيء ففعل ما أمرته به فلما قام يصلي رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي هذا قد أتى إليّ ولم يجد عندي شيئاً وقد أوقفته ببابك فلا تحرمه من فضلك وثوابك فلما فرغ من صلاة الركعتين لذت له العبادة فما برح يصلي إلى آخر الليل فلما كان وقت السحر دخلت عليه رابعة العدوية فوجدته ساجداً وهو يقول في عتابه لنفسه :

إذا مـــا قـــال لي ربي أما استحييت تعصيني وتخفي الذنب من خلقي وبالعصـــيان تـــأتيني

فمـــا قـــولي لـــه لمـــا يعـــاتبني ويقصـــيني

فقالت له : حبيبي كيف كانت ليلتك ؟ فقال : بخير وقفت بين يدي مولاي بذلي وفقري فجبر كسري وقبل عذري وغفر لي الذنوب وبلغني المطلوب . ثم خرج هائماً على وجهه فرفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي هذا وقف ببابك ساعة فقبلته وأنا منذ عرفتك بين يديك أترى قبلتني فنوديت في سرّها : يا رابعة من أجلك قبلناه وبسببك قرّبناه :

يـا سـيدي عبـدك المسـكين في بابـك يرجـو رضـاك فجـد بـالعفو أولى بـك

حاشاك تسدل حجابك دون طلابـك أو تبتلـي بعـذابك قلـب أحبابـك

يا هذا سبقك أهل العزائم وأنت في الغفلة نائم ، قف على الباب وقوف نادم ونكس رأس الذل وقل عبد ظالم وناد في الأسحار : أنا المذنب الهائم وقد جئت أطلب العفو والمراحم وتشبه بالقوم وإن لم تكن منهم فزاحم .

[إخواني] نظر العارفون بعين البصائر وعمل كل منهم لما هو إليه صائر هجروا المنام وقاموا في الدياجي الدياجر وغسلوا الوجوه بدموع المحاجر فأزعجهم ما يتلونه في القرآن من الزواجر :

خضـــوع وخـــوف واحتشـــام وذلـــة وهـــذا لمـــن يرجـــو النجـــاة قليـــل

فهـــل لي مـــن الأحـــزان حـــظ مـــوفر وهـــل لي إلى طـــول البكـــاء ســـبيل

لعلـــي أن أحظـــى بقـــرب ولـــذة ويحصـــل لي بعـــد الفـــراق وصـــول

[عن أنس بن مالك ﷺ] قال : كان رجل على عهد رسول الله ﷺ يتجر من بلاد الشام إلى المدينة ومن المدينة إلى الشام ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله تعالى . قال : فبينما هو جاء من بلاد الشام يريد المدينة ، إذ عرض له لص على فرس فصاح بالتاجر : قف ، قال :

فوقف التاجر وقال له : شأنك بمالي وخلّ سبيلي ، فقال له اللص : المال مالي وإنما أريد نفسك فقال له التاجر : ما تريد بنفسي ، شأنك والمال وخلّ سبيلي . فرد عليه بمقالته الأولى فقال له التاجر : انتظرني حتى أتوضأ وأصلي ركعتين وأدعو ربي عز وجل ؟ فقال له : افعل ما بدا لك قال : فقام التاجر وتوضأ وصلى أربع ركعات ، ثم رفع يديه إلى السماء فكان من دعائه أن قال : يا ودود يا ودود يا ذا العرش المجيد ، يا مبدىء يا معيد ، يا فعالاً لما يريد : أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك وبقدرتك التي قدرت بها على خلقك وبرحمتك التي وسعت كل شيء ، أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، لا إلّـه إلا أنت يا مغيث أغثني ثلاث مرات ، فلما فرغ من دعائه إذا بفارس على فرس أشهب عليه ثياب خضر وبيده حربة من نور ، فلما نظر اللص إلى الفارس ترك التاجر ومر نحو الفارس ، فلما دنا شدّ الفارس على اللص فطعنه طعنة أرداه عن فرسه ، ثم جاء إلى التاجر فقال له : قم فاقتله ، فقال له التاجر : من أنت ؟ فما قتلت أحداً قط ولا تطيب نفسي لقتله ، قال : فرجع الفارس إلى اللص فقتله ، ثم رجع إلى التاجر وقال : اعلم أني ملك من السماء الثالثة حين دعوت الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة فقلنا أمر حدث ، ثم دعوت الثانية ففتحت أبواب السماء ولها شرر كشرر النار ثم دعوت الثالثة فهبط جبريل عليه السلام علينا من قبل السماء وهو ينادي : من لهذا المكروب ؟ فدعوت ربي أن يوليني قتله ، واعلم يا عبد الله أنه من دعا بدعائك هذا في كل كربة وكل شدة وكل نازلة فرج الله تعالى عنه وأغاثه . قال : وجاء التاجر سالماً غانماً حتى دخل المدينة وجاء إلى النبي ﷺ وأخبره بالقصة فقال له النبي ﷺ : لقد لقنك الله أسماءه الحسنى التي إذا دعي بها أجاب ، وإذا سئل بها أعطى :

لك الفضل يا مولاي والشكر والحمد ... فما زلت تولي الخير مذ ضمني المهد
ولو رمت أن أحصي جميلك لم أطق ... فما لجميل قد مننت به حدّ
وكم لك من لطف أتاني مفرج ... من الكرب ما لولاه قد كان يشتد
قصدناك نستكفي العداة وشرهم ... وعند عظيم الجود لم يخب القصد
فليس لعبد غير مولاه ملجأ ... فإن ردّه المولى فما يصنع العبد
وما لي شفيع غير جاه محمد ... ومن جاهه في الحشر ليس له ردّ
عليه صلاة الله ما لاح بارق ... وما هطلت سحب وما قهقه الرعد

إلّـهي وصل العارفون بالمعرفة إليك وقام المجتهدون للخدمة بين يديك : إلّـهي خضع المتكبرون من هيبة جلالك وخشع المتجبرون لسطوة كمالك ، وارتاح المشتاقون إلى مشاهدة جمالك ، إلّـهي وقف السؤال ببابك ، ولاذ المحتاجون بجنابك ، وتقطعت أكباد المحبين في طلابك ، وفاز القائمون

بلذيذ خطابك ، وربح العاملون بثوابك ، حضر المراقبون في حضرة اقترابك ، إلـهي ندم المفرطون على تقصيرهم في خدمتك ، وخجل العاصون وأطرقوا حياءً من مراقبتك وأطرق المذنبون من جلال هيبتك وتمزق الخائفون من عظيم سطوتك ، إلـهي إن كنت لا ترحم إلا القائمين فمن للنائمين ، إلـهي إذا لم تنظر إلا للعاملين فمن للمقصرين ، إلـهي أجر أنهار المفتقرين من بحر إنعامك ، وروّ أكباد المحزونين من ماء عفوك وإكرامك ، إلـهي ردّ شارد الحائرين إلى أبواب معرفتك ، واهد قلوب الضالين بأنوار رأفتك وأدخلهم جميعاً في ظل عفوك ورحمتك وآوهم إلى ركن تجاوزك ومغفرتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الثلاثون

في مناقب الأولياء رضي الله عنهم أجمعين

الحمد الله الذي ملأ قلوب أحبته من سر محبته سروراً ، وكسا وجوههم من إشراق ضياء بهجته نوراً ، وتوجهم بتيجان البهاء وكتب لهم بالولاء منشوراً ، وهداهم إلى طريق معرفته فداموا على خدمته وما غيروا تغييراً ، اطلع على سرائرهم وتجلى على ضمائرهم فصفى خلاصة جواهرهم وزادهم هدى وتبصيراً ، وروّق لهم الشراب ورفع لهم الحجاب ، وقال : مرحباً بالأحباب لا تخشوا اليوم حزناً ولا تكديراً ، فمنهم من ترنح فطرب ، ومنهم من باح بالسر إذا غلب ، ومنهم من ندب إلى الحضرة وطلب ، وناهيك من ساق أدار سروراً ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ : [الإنسان : ٥] فهم قائمون في خدمته متلذذون في حضرته متقلبون في نعمته يكسرون جباراً ويجبرون كسيراً ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ : [الإنسان : ٧] أخلاقهم القنوع ، وشعارهم الخشوع ، وأفعالهم السجود والركوع يطوون الضلوع على الجوع ، ويؤثرون على أنفسهم سائلاً وفقيراً ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ : [الإنسان : ٨] قد غضوا الأبصار وأخرسوا الأفواه ، وعفروا

الوجوه والجباه ، وقالوا لفقرائهم قولاً ميسوراً ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ : [الإنسان :٩] قد شربوا من شراب حبه كؤوساً ، واستجلوا من أنوار مشاهدته شموساً ، وبرزت لهم الدنيا بزينتها عروساً ، فقالوا : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ : [الإنسان : ١٠] ذلك يوم يا له من يوم يحير من هوله كل قوم ، ويطير من شدته عن العيون النوم ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ : [الإنسان : ١١] اخترقوا حجب الأنوار وفازوا بجوار العزيز الغفار في جنات تجري من تحتها الأنهار ، تخدمهم الملائكة فيها مساءً وبكوراً ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ : [الإنسان : ١٩] لا يحزنهم الفزع الأكبر يوم القيامة ولا تلحقهم حسرة ولا ندامة ، يستبشرون بعد طول سفرهم بالسلامة ويسكنون غرفاً وقصوراً ، ثم يقال لهم في الجنة تهنئة لهم وتبشيراً ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ : [الإنسان : ٢٢] أحضرهم في حضرة قدسه وتولاهم بنفسه وسقاهم بكأس أنسه شراباً طهوراً وناداهم : عبادي وأحبابي طالما وقفتم ببابي ولذتم بجنابي ، وكان كل منكم على مصابي صبوراً لأبوّئنكم دار النعيم ولأمتعنكم بالنظر إلى وجهي الكريم ولأجعلنّ جزاءكم جزاءً موفوراً :

نالوا بذلك فرحة وسرورا ... وسعوا فأصبح سعيهم مشكورا ... قوم أقاموا للإلـه نفوسهم
فكسا وجوههم الوسيمة نورا ... تركوا النعيم وطلقوا لذاتهم ... زهداً فعوضهم بذاك سرورا
قاموا يناجون الحبيب بأدمع ... تجري فتحكي لؤلؤاً منثورا ... ستروا وجوههم بأستار الدجى
ليلاً فأضحت في النهار بدورا ... عملوا بما علموا وجادوا بالذي ... وجدوا فأصبح حظهم موفورا

وإذا بدا ليل سمعت أنينهم ... وشهدت وجداً منهمو وزفيرا
تعبوا قليلاً في رضا محبوبهم ... فأراحهم يوم المعاد كثيرا
صبروا على بلواهمو فجزاهمو ... يوم القيامة جنة وحريرا

[كان أبو مسلم الخولاني رحمه الله عليه] يحب الصدقة والإيثار وكان يتصدق بقوته ويبيت طاوياً فأصبح يوماً وليس في بيته غير درهم واحد ، فقالت له زوجته : خذ هذا الدرهم واشتر به دقيقاً نعجن بعضه ونطبخ بعضه للأولاد فإنهم لا يصبرون على الجوع فأخذ الدرهم والمزود وخرج إلى السوق وكان برداً شديداً فصادفه سائل فتحول عنه فلحقه وألح عليه وأقسم عليه فدفع إليه الدرهم وبقي في همّ وفكر كيف يعود إلى الأولاد والزوجة بغير شيء فمرّ بسوق البلاط وهم ينشرونه ففتح المزود وملأه من النشارة وربطه وأتى به إلى البيت فوضعه فيه على غفلة من زوجته ثم خرج إلى المسجد فعمدت المرأة إلى المزود ففتحته ، فإذا فيه دقيق حواري أبيض فعجنت منه وطبخت للأولاد فأكلوا وشبعوا ولعبوا ، فلما ارتفع النهار جاء أبو مسلم ، وهو على خوف من امرأته ، فلما جلس أتته بالمائدة والطعام فأكل ، فلما فرغ قال : من أين

لكم هذا ؟ قالت : من المزود الذي جئت به فتعجب من ذلك وشكر الله تعالى على لطفه وحسن صنيعه .

[إخواني] انظروا إلى لطف الله تعالى بأوليائه ، كيف توكلوا عليه فكفاهم أمر دنياهم ورزقهم من فضله وفعل معهم ما هو أهله :

توكل على الرحمن تحظى برفده ... وكن واثقاً منه برزقك بالفعل
وسلم إلى مولاك أمرك إنه ... سيكفيك أسباب الكريهة والثقل
ومن يتوكل في الأمور جميعها ... على الله يحظى بالتباشر والفضل
فيلقى جميع الناس بالرحب والرضا ... ويحنو على الجيران والصحب والأهل
فذاك الذي قد أذهب الله همه ... وجازاه بالإحسان في الضيق والمحل

[كان أبو معاوية الأسود] رحمه الله مكفوف البصر ، وكان يحب قراءة القرآن ، وكان إذا فتح المصحف ردّ بصره عليه حتى يفرغ من القراءة فإذا أغلقه كف بصره فنودي في سره ماكففنا بصرك بخلاً عليك به ، ولكن غرنا عليك ، أن تنظر إلى غيرنا :

وغضضت طرفي عن سواك فما أرى ... في الكون غيرك من إلّه يعبد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... وله جميع الكائنات توحد
يا منتهى سؤلي وغاية مطلبي ... من لي إذا أنا عن جنابك أطرد
أنت المؤمل في الشدائد كلها ... يا سيدي ولك البقاء السرمد
ولك التصرف في العباد كما تشا ... فلذاك تشقي من تشاء وتسعد
فامنن عليّ بتوبة يا من له ... قلب المحب مقدس وموحد

[قال إبراهيم السائح رحمه الله] : بينما أنا أطوف بالبيت الحرام ، وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تنادي وتقول : يا وحشتي بعد الأنس ، ويا ذلي بعد العزّ ، ويا فقري بعد الغنى ويا عظم مصيبتي . فقلت لها يا جارية وما مصيبتك ؟ فقالت : فقدت قلبي ، فقلت : وهذه مصيبتك ! فقالت : وأي مصيبة أعظم فقد القلوب وانقطاعها عن المحبوب ؟ فقلت لها : هلا خفضت من صوتك ، فقالت : يا شيخ البيت بيتك أم بيته ؟ فقلت لها : بل بيته ، قالت فالحرم حرمك أم حرمه ؟ قلت : بل حرمه ، قالت : فمن استزارنا إليه ؟ قلت : هو ، قالت : فدعنا نتدلل عليه بين يديه كما استزارنا إليه ودلنا عليه ثم رفعت يديها وقالت : سيدي بحبك لي إلا ما رددت عليّ قلبي ، فقلت لها : من أين علمت أنه يحبك ؟ قالت : لسبق عنايته بي فإنه جيش الجيوش في طلبي وأنفق الأموال وجهد العبيد حتى أخرجني من بلاد الشرك وأدخلني بلاد التوحيد وعرفني الطريق إليه ودلني بحسن التوفيق عليه فما شعرت إلا وأنا بين يديه :

شـــغفي بـــذكرك جـــنتي ونعيمـــي وإذا نســـيتك فهـــو عـــين جحيمـــي
يـــا مـــن أخاطبـــه بـــه في خـــاطري وأراه وهـــــو محـــــدثي ونـــــديمي
وأحـــــبني مـــــن قبـــــل أن أحببتـــــه فلـــذاك أوجـــب في الهـــوى تقـــديمي
وعلـــيّ بالتوحيـــد جـــاد تكرمـــاً والعفـــــو والغفـــــران والتكـــــريم

[كان الشيخ أبو مدين رحمه الله عليه] كبير القدر وكان من الأبدال صاحب الخطوة والحظوة والكرامات والتصريف ، وكان يتكلم في الحقيقة بعد صلاة الفجر في مسجد الخضر بمدينة الأندلس فسمع به رهبان دير يعرف بدير الملك وكانوا سبعين نفراً فجاء من أكابرهم عشرة بسبب الامتحان فتنكروا ولبسوا زيّ المسلمين ودخلوا المسجد فجلسوا مع الناس ولم يعلم بهم أحد . فلما أراد الشيخ أن يتكلم سكت حتى دخل رجل خياط ، فقال له الشيخ : ما أبطأك ؟ فقال : يا سيدي حتى فرغت العشرة طواقي التي أوصيتني عليها البارحة ، فأخذها الشيخ منه ونهض قائماً فألبس كل واحد من الرهبان طاقية ، فتعجب الناس من ذلك ولم يعلموا الخبر ، ثم شرع الشيخ في الكلام ، فكان من جملة قوله : يا فقراء إذا هبت نسمات التوفيق من جناب الحق تعالى على القلوب المشرفة أطفأت كل نور ، ثم تنفس الشيخ فانطفأت قناديل المسجد كلها وكانت نيفاً على ثلاثين . ثم سكت الشيخ وأطرق ، فلم يجسر أحد أن يتكلم أو يتحرك لعظم الهيبة ثم رفع رأسه وقال : لا إلـه إلا الله يا فقراء إذا أشرفت أنوار العناية على القلوب الميتة عاشت وأضاء لها كل ظلمة . ثم تنفس الشيخ فاشتغلت القناديل وعاد إليها نورها واضطربت اضطراباً شديداً حتى كاد يلحق بعضها بعضاً . ثم تكلم الشيخ في تفسير آية سجدة فسجد وسجد الناس فسجد الرهبان مع الناس خشية الفضيحة والاشتهار . فقال الشيخ في سجوده : اللهم إنك أعلم بتدبير خلقك ومصالح عبادك وإن هؤلاء الرهبان قد واقفوا المسلمين في لباسهم والسجود لك وأنا قد غيرت ظواهرهم ، ولم يقدر على تغيير بواطنهم غيرك ، وقد أجلستهم على مائدة كرمك فأنقذهم من الشرك والطغيان ، وأخرجهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان ، فما رفع الرهبان رؤوسهم من السجود ، إلا وقد مضى عنهم الهجران والصدود ، ودخلوا في دين الملك المعبود فأسلموا وبلغوا المقصود ، فأتوا إلى الشيخ ، فتابوا على يديه ، وبكوا وندموا على ما كان منهم فكثر الصراخ والبكاء في المسجد ، وكان يوماً مشهوداً ، ومات ثلاثة أنفس في المجلس وبلغ الملك خبرهم فأحسن إليهم وأنعم عليهم ، وفرح الشيخ بإسلامهم ، هذه والله صفات الأولياء الأخيار السادة الأبرار أمناء الله على عباده ورحمته لهم في بلادة :

فهمـو أوليـاؤه حيـث حلـوا وهمـو للقلـوب بـرد وظـل قد تفانوا عن الوجـود فعـزوا

وأشـاروا إلى الطريـق فـدلوا فلهذا قـد أصـبحوا في البرايـا كل صعب ينـالهم فهـو سـهل

لم يزل ذكـرهم علـى الـدهر يتلـى ولكـل القلـوب يجلـو ويحلـو

فبـهم يرفـع الـبلاء عـن الخلْـ ـق ويهـدوا مخافـة أن يضـلوا

إلـهي وقف السؤال ببابك ، ولاذ المذنبون بجنابك ورفع ذوو الحاجات قصص فاقتهم إليك نكس العصاة رؤوس الانكسار بين يديك ، انقطعت حجج المقصرين عن الاعتذار إليك ، أرست سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك ، وكلهم يرجون الجواز إلى ساحة فضلك ونعمك ، امتدت أيدي السائلين إلى وابل غيث جودك ، تقلقلت قلوب الخائفين من إزعاج وعيدك ، فكيف يجيبون وقد عمّ عفوك ورحمتك سائر عبيدك ؟ إلـهي فمن للسائلين إذا ردوا ، ومن للعاصين إذا طردوا عن بابك وصدوا ، ومن للمتخلفين إذا قطعوا ، ومن غيرك يقبل التائبين إذا رجعوا . إلـهي وصل العارفون بالمعرفة إليك ، قام المتهجدون للخدمة بين يديك . إلـهي خضع المتكبرون من هيبة جلالك ، خشع المتجبرون لسطوة كمالك ، ارتاح المشتاقون إلى مشاهدة جمالك. إلـهي تقطعت أكباد المحبين في طلابك ، فاز القائمون بطيب خطابك ، ربح العاملون بثوابك ، حضر المراقبون في حضرة اقترابك . إلـهي ندم المفرطون على تقصيرهم في خدمتك ، خجل العاصون وأطرقوا حياء من مراقبتك ، أطرق المذنبون من جلال هيبتك ، تمزق الخائفون من عظيم سطوتك ، إلـهي إن كنت لا ترحم إلا القائمين فمن للنائمين ، إلـهي إذا لم تنظر إلا للعاملين فمن للمقصرين ، إلـهي إذا لم تغفر إلا للمطيعين فمن للمذنبين ، إلـهي رد شارد الحائرين إلى أبواب معرفتك ، اهد قلوب الضالين بأنوار رأفتك أدخلهم جميعاً في ظلّ عفوك ورحمتك ، آوهم إلى ركن تجاوزك ومغفرتك برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الحادي والثلاثون

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم

الحمد لله الذي فتح أقفال الصدور بمفاتيح السرور والأفراح ، وخص نسيم السحر بطيب الهبوب فأحيا به القلوب وأروح الأرواح ، سقى بساتين قلوب أوليائه بغيث جوده ونعمائه